

المصراع الروسى - العثمانى

وأثره

فى الوطن العربى

دكتور فؤاد المرسى خاطر

يعد بطرس الأكبر من أعظم القياصرة الروس وحين تولى بطرس (١٦٨٢ - ١٧٢٥) عرش روسيا كان الشعب الروسى لا يزال فى حقيقته شعبا آسيويا وكانت روسيا شاسعة المساحة تشمل السهل الكبير بين البحر الأبيض الروسى فى الشمال وبحر قزوين فى الجنوب وتمتد عبر جبال أورال فى آسيا الشمالية ، وكان الروس يقيمون نوعا من السيطرة غير الحازمة على سكان سيبيريا نتيجة للزحف الروسى تجاه الشرق • أما جهة الغرب فقد حال دون توسعهم وجود بولندا والسويد ، وكانت الأخيرة تغلق بحر البلطيق فى وجه الروس • وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر على جميع الأراضى المحيطة بالبحر الأسود فى الجنوب • وهذا يعنى أن روسيا كانت محاصرة لا يكاد يوجد بينها وبين البحار العالمية المفتوحة سوى البحر الأبيض الروسى وهو يتجمد معظم شهور السنة •

وهذه الصفة البرية لروسيا تفسر تأخرها فى الاتصال بأوروبا وحضارتها كما أن هذه العزلة الطويلة هى المسئولة عن ذلك النوع من

الحكم الذى عرفته روسيا ولم تعرفه أوروبا والذى كان مزيجا من
الانوقراطية البيزنطية والتقاليد المغولية^(١) .

لقد كانت روسيا بحاجة الى طرق للمواصلات البحرية لكي تتطور
بصورة طبيعية وكان بطرس الأكبر يقول « أن روسيا بحاجة الى البحر »
الا أن تركيا كانت تسيطر عندئذ على البحر الأسود ، والسويد القوية
كانت تسيطر على بحر البلطيق واحتل السويديون فى بداية القرن
السابع عشر الأراضي الروسية فى حوض البلطيق فكان البحر
قريبا ولكن الوصول اليه متعذرا^(٢) . وكان على بطرس الكبير أن يتغلب
على هذه الصعاب وكان بين أهم أهداف السياسة الروسية فى عهد
بطرس الكبير : فتح الطريق أمام روسيا الى الغرب مباشرة وذلك بتثبيت
النفوذ الروسى على بحر البلطيق والبحر الأسود وهو ما سيؤدى الى
بدء الصراع مع العثمانيين .

(١)

الصراع بين روسيا والدولة العثمانية

حتى نهاية القرن الثامن عشر

بدأ بطرس الأكبر بوضع سياسته موضع التنفيذ فى عام ١٦٩٥
منتها فرصا اشتباك « ليوبولد » امبراطور النمسا — المجر فى حرب
مع العثمانيين .

وكانت الامبراطورية العثمانية مع بداية القرن الثامن عشر تعاني
من التدهور فبينما كانت الأسلحة والفنون الحربية تتطور فى أوروبا
بشكل سريع نتيجة لتطور الصناعة ظل الجيش العثمانى على حاله

(١) محمد مؤاد شكرى ، محمد أنيس (الدكتوران) : أوروبا فى
العصور الحديثة ج ١ ط ١ (انجلو المصرية — القاهرة ١٩٦١) ص ٢٦٠ .
(٢) بيبفانوف ، فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفيتى — ترجمة خيرى
الضامن ، نقولا طويل (دار التقدم — موسكو) ص ١٩٩ .

التي كان عليها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وانتقلت
الامبراطورية من الانتصارات الى الاندحار ومن الهجوم الى الدفاع
وبدأت تفقد بعض أجزائها^(٣) • وأسرع بطرس بشن الحرب على
العثمانيين واحتل ميناء « آزوف » على البحر الأسود واضطرت الدولة
العثمانية للاعتراف له بذلك في معاهدة كرلوفيا (كرلوفتزر) عام ١٦٩٩ •
ثم تطلع لفتح منفذ لبلاده على البلطيق لأن شغل آزوف كان قليل
القيمة طالما الدردنيل مفتاح الطريق الى البحر المتوسط في قبضة
العثمانيين • وكان لا مفر من الاصطدام في تحركه نحو البلطيق
بدولة السويد •

ودخلت روسيا في حربين مع السويد خسرت الأولى في عام ١٧٠٠
ولكنها انتصرت في الثانية في عام ١٧٠٩ في موقعة « بولتافا »
حيث فر شارل ملك السويد مع مجموعة صغيرة من قواته الى تركيا •
واستقبل السلطان العثماني (أحمد الثالث) الملك السويدي الهارب
استقبالا طيبا ومنحه مكانا على نهر الدنيستر ليتخذ مقر اقامته
واستمر فيه خمس سنوات صرف همه فيها في تحريض السلطان
على اعلان الحرب على الروس حتى يشغلهم ويعود هو الى السويد
ليسترد نفوذه ويستأنف الحرب ضد روسيا • وسر شارل عندما نشبت
الحرب بين روسيا — وتركيا عام ١٧١١ وقد حاول الروس نقل الحرب
الى الأراضي العثمانية فوقع الجيش الروسى فى حصار كاد ينتهى
بتسليمه لولا القائد التركى الذى يسر له امكانية الاغلات مقابل
استرداد « آزوف » ورشوة كبيرة تقاضاها لنفسه • وتم توقيع اتفاقية
بين روسيا وتركيا فى يوليو (تموز) عام ١٧١١ أمات فيها تركيا
شروطها على روسيا بواسطة الممثل التركى عند نهر « بروت »
وقد وضعت هذه الاتفاقية أساس السلام الذى وقع فى

(٣) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث (ترجمة دار التقدم
موسكو ١٩٧١) ص ٣٢ •

« أدرنة » فى ٢٢ يوليو (تموز) ١٧١٣ وعادت آزوف لتركيا وتم هدم القلاع التى بنيت قرب نهر سامرا Samara وسلمت مواقعها وذخائرها للإتراك (٤) .

وحققت بذلك تركيا نصرا واضحا على الروس . ولما فشل شارل فى حرب السويد مع النرويج عام ١٧١٨ تنازلت السويد عن الأراضى التى كانت تطالب بها الدول المجاورة ، وفازت روسيا منها بنصيب الأسد فى معاهدة نىستاد Nystad فى عام ١٧٢١ حيث حصلت على « انجمرلاند » وكاريلينا واستونيا ولتوانيا وعموما على كل الممتلكات السويدية على ساحل البلطيق الشرقى باستثناء فنلندا . وهذا يعنى أن روسيا ستتمكن من القنوع أكثر للتحرك ضد العثمانيين . واستمر بطرس حتى آخر أيامه يؤكد على سير روسيا فى تيار الحضارة الأوروبية . وعملت كاترين الثانية على مواصلة خطة بطرس الكبير لمد حدود روسيا ناحية الغرب فى أوروبا ولكن كاترين واجهت فى سبيل تحقيق أهدافها كلا من بولندا والامبراطورية العثمانية وان كانتا لم تشكلا عائقا كبيرا : فبولندا كانت تعاني من فوضى داخلية والامبراطورية العثمانية كانت تحتاز بداية الانهيار . وفيما يخص بولندا فانه بعد مفاوضات طويلة بين برلين وبترسبرج وفيينا وقعت معاهدة عام ١٧٧٢ لتقسيم الأراضى البولندية وهو التقسيم الأول لبولندا نالت بموجبه روسيا الأراضى التى تقع شرق نهر الرون والدنيبر الأعلى وهى منطقة روسيا البيضاء .

كان نجاح كاترين الثانية فى بولندا قد شجعها على مضاعفة جهودها

(4) Hurewitz, J. C, *Diplomaey in the Near and Middle East* Vol. I (New York 1972) p. 39.

ولزيد من التفاصيل عن مخططات بطرس الكبير ضد الدولة العثمانية والصراع بين الدولتين فى عهده . انظر :

Sumner, B. H, *Peter The Great and the Ottoman Empire*. pp. 21 — 23, p.i 27.

ضد الاتراك ففى حربين الأولى من ١٧٦٨-١٧٧٤ ، والثانية من ١٧٨٧-١٧٩٢ نجحت كاترين فى تحطيم الستار الذى كانت الدولة العثمانية تتصبه حول البحر الأسود فقد ترتب على الحرب الأولى بسط النفوذ الروسى على طول بحر آزوف وفى شبه جزيرة القرم^(٥) . وبدأت روسيا تمد نشاطها الى الوطن العربى .

وتجدد الاشارة هنا الى أن الجزائر تعاونت مع الدولة العثمانية فى الحرب الأولى فقدمدت لها معونات بحرية ذات شأن كبير واشتبك الاسطول الجزائرى - وكان قويا - مع الاسطول الروسى الذى دخل البحر الأبيض المتوسط رغم تهديد البريطانيين بضرب الجزائر .

ومن ناحية أخرى فان روسيا بدأت فى هذه الفترة تستغل الحركات التى ظهرت ضد الدولة العثمانية فى الشرق العربى فعندما خرج الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا على الدولة وتحالف مع على بك الكبير الذى انفرد بحكم مصر عام ١٧٦٩ وقرر قطع علاقاته مع الدولة عام ١٧٧٠ استغلت روسيا خروج الرجلين على الدولة خاصة وان على بك الكبير أراد أن ينال مساعدة روسيا ، وكان الاسطول الروسى مرابطا وقتذاك فى الارخبيل تحت قيادة « الكونت أورلوف » وعندما تم تدمير الاسطول التركى فى موقعة « جشمة » الشهيرة فى ٢٥ ، ٢٦ يوليو (حزيران) عام ١٧٧٠ أحكم الروس سيطرتهم على البحر واستولوا على بعض جزر الارخبيل مساندين بذلك المتمردين اليونانيين بشكل فعال . وفى عام ١٧٧١ وصل مبعوثون خاصون من جانب على بك الكبير الى مقر قيادة « أورلوف » فى جزيرة « باروس » حيث تم الاتفاق بين الجانبين على العمل المشترك ضد العثمانيين .

وقد أفاحت خطة على بك فى بادىء الأمر . اذ شرع المصريون بمساندة قوات الشيخ ظاهر العمر بشن حملة كبيرة على سوريا عام

(٥) شكرى ، أنيس : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

١٧٧١ ، واستولوا على دمشق وصيدا وحاصروا يافا • لكن خيانة
أبى الذهب لعلى بك أدت الى فشله وهروبه الى عكا • وانضم يوسف
الشهابى ، أمير لبنان الى جانب الاتراك ، فحاصروا صيدا معا • وفى
ذات الوقت قدم الى سواحل الشام وفقا لطلب الحافاء ، الاسطول الروسى
واستولى على بيروت فى مايو (آيار) ١٧٧٢ • ولكن الروس غادروا
سواحل الشام بعد عقد هدنة مع الاتراك فى خريف نفس العام
وعادت الشام للاتراك من جديد لكن الروس رغم الهدنة لم يتوقفوا عن
تقديم العون لعلى بك الذى أراد أن يضرب المتمردين عليه من المماليك
فأرسل الكونت أورلوف • وفدا برئاسة الملازم بليشيف ، الى على بك •
قدم له كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر • وشرع على بك فى عام
١٧٧٣ بمحاربة المتمردين ، معتمدا على جيشه الذى أعاد تنظيمه ومع
ذلك فقد حلت به الهزيمة فى معركة قرب الصالحية شرقى الدلتا بمصر
وأصيب على بك بجرح خطير وأخذ أسيرا الى القاهرة حيث توفى بعد
قليل • فأصبح الشيخ ظاهر العمر فى وضع حرج •

غير أن الهدنة الروسية — التركية التى انتهت فى يونيو (حزيران)
عام ١٧٧٣ جعلت روسيا ترسل الى سواحل الشام قسما من اسطولها
مرة أخرى بقيادة « كوجوخوف » وقطع يوسف الشهابى علاقاته بالاتراك
وعقد تحالف مع الروس والشيخ ظاهر العمر • وبعد حصار استمر
ثلاثة أشهر استولى الروس على بيروت مرة أخرى •

وفى أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٧٧٣ قدم يوسف الشهابى طالبا
الى الامبراطورة الروسية لتجعله تابعا لروسيا وأن تضع لبنان تحت
الحماية الروسية • ولكن كاترين الثانية رفضت هذا الطلب بعد أن تم
توقيع اتفاقية صلح « كوتشك قينارجة » بين الروس والاتراك فى
عام ١٧٧٤ ، وغادر الاسطول الروسى سواحل الشام • وترك ظاهر
العمر يواجه مصيره حيث وجه الاتراك قواتهم ضده وانتهى الأمر

بمقتله والاستيلاء على عكا التى أصبحت مقرا لاجمء الجزائر (٦) .

وواضح أن روسيا كانت تساند الخارجين على الدولة العثمانية لتحقيق مصالحها وللضغط على الدولة وعندما وقعت اتفاقية مع الدولة نالت بها كثيرا من المكاسب تخلت عن الذين كانت تساندهم دون تردد . فبمقتضى هذه الاتفاقية استحوذ الروس على الاجزاء الشمالية الشرقية من البحر الأسود ، كما أعلنت استقلال خانات القرم عن الدولة العثمانية ، واكتسبت روسيا بمقتضى المعاهدة حقوقا تجارية وبحرية وأصبح من حقها انشاء قنصليات فى ممتلكات الدولة وأصبح لرعاياها حق التجارة فى أملاك هذه الدولة ، كما فتحت لسفنها حرية الملاحة فى أوقات السلم فى البحر الأسود وعبر المضائق التركية ، وأعطيت روسيا حق اقامة كنيسة ارثوذكسية فى استانبول على رأسها أساقفة روس ، وأصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الأراضى المقدسة المسيحية — ومن الناحية السياسية كان لروسيا حق حماية المسيحيين فى ولاشيا ومولدافيا (٧) .

وهذا يعنى أن الدولة العثمانية قد فقدت انفرادها بالسيطرة فى البحر الاسود ومهدت الاتفاقية الطريق لضم روسيا لخانات التتر ، كما أصبح فى امكان الروس التدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية المسيحيين الارثوذكس .

ومنذ توقيع اتفاقية كوتشيك قينارجة تحددت الخطوط التى أضحت بإمكان روسيا بواسطتها الزحف على الدولة العثمانية وهى : رابطة الشعوب السلافية وعلى رأسها روسيا للعمل على اثاره المتاعب للدولة

(٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٨—٣٩ .

(٧) انظر النص فى : Hurewitz, op. cit., pp. 54 — 61.

(٨) محمد أنيس ، رجب حراز (الدكتوران) :

الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر (دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٧) ص ٧٤—٧٥ .

فى البلقان العثمانية ، وجنوب شرقى أوروبا ، والارشوذكسية التى تدعى روسيا لنفسها حق حمايتها ورعايتها ، وأخيرا العدوان المسلح وسلخ ممتلكات الدولة^(٨) .

وظهرت أصابع روسيا من جديد ضد الدولة فى مصر بعد أن استأثر مراد بك وإبراهيم بك بالسلطة فيها فقد ترامت الانباء الى الدولة العثمانية بأن هذين الاميرين يجدان تشجيعا من روسيا فى سياستهما تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية • وكانت روسيا قد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التى أتيحت لها على عهد على بك الكبير •

وقد زاد اهتمام روسيا بمصر بعد وفاة على بك الكبير وعينت قنصلا لها فى الاسكندرية وعهدت اليه بعرض المساعدات العسكرية على ابراهيم بك ومراد بك وأن يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر فى أى حركة استقلالية عن الدولة • ولكن يبدو أن الاضطراب الداخلى فى مصر فى تلك الحقبة لم يساعد على الدخول فى تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا • ولكن ابراهيم بك استقدم عددا وافرا من المماليك من روسيا^(٩) • أما ما ترتب على الحرب الروسية التركية الثانية (١٧٨٧ — ١٧٩٢) فهو امتداد نفوذ روسيا غربا على طول البحر الأسود حتى نهاية « الدنيستر » وكفأت كاترين الثانية تحلم بالاستيلاء على (القسطنطينية) نفسها • وحين ماتت كاترين الثانية كانت روسيا قد اندمجت فى النظام الدولى الاوروبى وأصبحت احدى الدول الكبرى فيه •

(٩) عبد العزيز الشناوى (الدكتور) عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية (اعلام العرب العدد ٦٧ — دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧) ص ١٨ •

تصاعد الصراع الروسى العثمانى فى القرن التاسع عشر

اتخذت المسألة الشرقية فى أواخر القرن الثامن عشر شكلها الحديث وحكمتها عوامل ثلاثة هى : ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات الصغيرة فى البلقان وأثر هذان العاملان على سياسة الدول الكبرى — فقد تعرضت الدولة العثمانية فى السنوات ما بين ١٧٨٨ ، ١٧٩١ لهجوم روسى — نمسوى مشترك ، وتقدمت روسيا — التى ما برحت تؤكد أنها حامية للمسيحيين الارثوذكس فى الامبراطورية — حتى وصلت ميناء « أوجزاكوف Ogzakov » على البحر الاسود .

وهكذا بدأت روسيا مع مطلع القرن التاسع عشر تتسلل الى جنوب البحر الأسود وكانت تتطاع على الدوام الى القسطنطينية باعتبارها الهدف النهائى . وكانت المتاعب تنشأ غالبا بقيام محاولات من جانب قوميات البلقان الصغيرة لتؤكد استقلالها عن تركيا ، فلا تلبث الدول الكبرى أن تتدخل على أثرها لتحسين أوضاع هذه القوميات وتنظيمها . وكانت روسيا بين هذه الدول بشكل خاص تسعى الى التعجيل بانتهاء الدولة العثمانية — وقد أسفر الموقف فى القرن التاسع عشر عن ثورات متعددة من جانب الرعايا الاتراك فى البلقان ضد السلطان وثلاث حروب روسية تركية .

وبدأت الثورة تتدلح فى البلقان من العربيين ، اذ بدأت ثورتهم فى عام ١٨٠٤ بزعامة قره (الاسود) جورج بعد ثمانية أعوام من الثورة تمكن قره جورج من تدعيم مركزه فحصل فى المعاهدة الروسية التركية عام ١٨١٣ على وعد بالاستقلال الذاتى لبلاده . على أنه لم يابث أن هزم فى عام ١٨١٣ وفر من البلاد . وفى عام ١٨١٥ أشعل « ميلوس

أوبرينوفيتشى « ثورة أخرى تنجح فى تأكيد استقلال الصرب الفعلى (de Faeto) وتمكن بعد جهد ووقت من الحصول على دستور والاعتراف به أميراً للصرب^(١٠) . وساعدت روسيا الثورة فى اليونان ضد الدولة العثمانية فى عشرينات القرن التاسع عشر وكان اليونانيون قد كونوا عام ١٨١٤ منظمة سرية اسمها « فيليكي هيتريا » أى اتحاد الاصدقاء وكان مركزها فى « أوديسا » ويرأسها ضابط كبير فى الخدمة الروسية هو « اسكندر ايبسيلانتى » . وفى ٦ مارس (آذار) ١٨٤١ عبر ايبسيلانتى على رأس مفرزة يونانية صغيرة كونت على الأراضى الروسية — نهبروت ودخل الأراضى الخاضعة للسلطان العثمانى من ولايات الدانوب . وكان يأمل فى إثارة السكان ضد السلطان لكنه هزم . ورغم ذلك فان حملته كانت اشارة البدء لانتفاضة اليونانيين التى انتهت بهزيمة جيش الانكشارية وأجلته عن المورة نهاية عام ١٨٢١ .

وقد جرت مصر الى هذه الأحداث وتمثل ذلك فى استتجاد السلطان العثمانى محمود الثانى بمحمد على بعد أن ولاه المورة واستجاب محمد على وأرسل جيشا الى المورة بقيادة ابراهيم باشا حيث تمكن من الاستيلاء على اثينا فى الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٨٢٧ .

وهنا أسرعت الدول الأوروبية للتدخل وكانت روسيا فى المقدمة وكانت سياستها قد تغيرت منذ عام ١٨٢٥ بتسام « نيقولان الأول » العرش ومالت الى مساندة أكثر فعالية لليونانيين . وترتب على هذا أن سارعت بريطانيا — لعدم رغبتها فى انفراد روسيا بالتدخل — الى الاتفاق مع روسيا على القيام بعمل مشترك فى اليونان .

(10) Grant. A. J, Temperly, H : Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (London 1944) pp. 257 — 258.

وفى ٤ ابريل (نيسان) ١٨٢٦ وقع نسلرودة وولنجتون فى
بطرسبورج البروتوكول البريطانى الروسى بشأن التدخل فى الشئون
اليونانية وقررت فيه الدولتان أن تحصل اليونان على الاستقلال
الذاتى وتبقى شكليا فى نطاق الدولة العثمانية • وكان فى نية الدولتين
فى الواقع بسط حمايتهما الخاصة عليها •

ورفض السلطان العثمانى جميع المطالب الانجلو — روسية وكان
النفوذ الروسى فى اطراد مستمر فى اليونان فقد انتخب « كابوديستريا
رئيسا لليونان ، وهو وزير الخارجية الروسى السابق ، ولتفادى تثبيت
المركز الروسى المتفوق فى اليونان طرحت بريطانيا مجددا مسألة عمل
دولى مشترك •

وفى السادس من يوليو (تموز) ١٨٢٧ ، بعد شهر من الاستيلاء
المصرى على اثينا ، وقعت فى لندن معاهدة وسعت بروتوكول بطرسبرج
لعام ١٨٢٦ بانضمام فرنسا للدولتين حيث قررت الدول الثلاث الحصول
على فصل اليونان المدنى عن تركيا • ورفض الباب العالى مرة أخرى
فأقدمت الدول الثلاث على التدخل وفى ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول)
دخل اسطولها الموحد خليج « نفارين » حيث كانت ترابط القوات
الأساسية للاسطولين التركى والمصرى • وبدأت المعركة التى انتهت
بإبادة الاسطولين المصرى والتركى ووجد ابراهيم نفسه فى وضع
لا يحسد عليه اذ صار منقطعا عن قاعدته الأساسية كما أن تدخل الدول
بعث قوة جديدة فى الانتفاضة اليونانية •

وفتحت « نفارين » باب حرب روسية — تركية كبيرة بدأت فى
ربيع عام ١٨٢٨ لكن محمد على لم يسهم فيها واضطر الى الجلاء عن
المورة وفى أغسطس (آب) ١٨٢٨ وقع محمد على فى الاسكندرية
اتفاقية جلاء القوات المصرية عن المورة وبدأ الجلاء فعلا فى سبتمبر
(ايلول) من نفس العام •

وهكذا انتهت هذه الحرب بتكبيد مصر خسائر كبيرة (٣٠ ألف جندي) بالإضافة الى حرمانها من اسطولها (١١) .

أما الحرب الروسية - التركية فقد انتهت بهزيمة الأخيرة فقد تقدم الروس في آسيا حتى ارضروم وفي أوروبا حتى اندرينويل وهدد هذا العاصمة العثمانية ذاتها غير أن الروس لم يقدموا على مهاجمتها أمام هياج الرأي العام في أوروبا ومعارضة بريطانيا واضطر القيصر الروسي أن يذهب الى برلين بنفسه ليحصل على الوساطة البروسية (١٢) . وانتهى الأمر بتوقيع صلح ادرنه وبموجب شروط صلح ادرنه الموقع في ١٤ سبتمبر (ايلول) ١٨٢٩ ، منحت اليونان الاستقلال الذاتي .

ومن الغريب أن روسيا خرجت من التجربة بنتيجة مغايرة تماما بالنسبة لتركيا اذ تحولت سياسة روسيا بعد عام ١٨٢٩ ولدة عشر سنوات على الأقل الى النقيض التام من سياستها التقليدية الرامية الى مواصلة الزحف حتى القسطنطينية وضم كل ما تستطيع ضمه من الأراضي في الطريق . وقصة ذلك أن القيصر نيقولا عين في ١٨٢٩ لجنة من كبار سياسيه لبحث أمر نتائج انحلال الامبراطورية العثمانية المتوقع فأفتت اللجنة بأن المحافظة على سلامة تركيا أمر مستحب اذ رأت أن دولا بلقانية صغيرة ستتشأ اذا استمر انحلال تركيا ولن تتمكن روسيا من السيطرة على هذه الدول ، في حين أن لها في تركيا بوضعها القائم اذ ذاك حقوقا تكفلها المعاهدات وتستطيع روسيا اذا شاءت السعي لكسب المزيد من الأراضي أن تتجه صوب أرمنيا أو بغداد لا القسطنطينية وما لبث نيقولا أن قبل تقرير اللجنة (١٣) .

(١١) لوتسكي : المرجع السابق ص ١٢١ .

(١٢) جوزف حجار (الدكتور) : أوروبا ومصير الشرق ، ترجمة بطرس الحلاق ومجد نعمة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٦)
ص ٣٧-٣٨ .

(13) Grant, Temperely. op. cit., p. 260.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحرب قد شلت يد الدولة فلم تقدم أى مساعدة للجزائر عندما غزتها فرنسا فى العام التالى • كما أن روسيا ساندت مشاريع البوربون للاستيلاء على الجزائر عام ١٨٣٠ •

التحالف الروسى التركى ضد محمد على :

أضعفت الهزيمة التى ألحقها روسيا بتركيا الجيش التركى كثيرا وأدت الغرامة الحربية التى فرضت على تركيا الى ازدياد التذمر فى ولاياتها فبدأت انتفاضات فى بعض الولايات فى محاولة للخروج على الدولة مثال ذلك ماحدث فى العراق على يد داود باشا وان كانت الدولة قد أخمدت حركته •

أما محمد على فقد شجعه ضعف الباب العالى على التقدم نحو الشام واستقبلت جيوش محمد على فى الشام استقبال المنقذين المحررين من النير السلطانى • وبعد الانتصارات التى حققتها القوات المصرية فى الشام دخلت الأناضول وبينما كان الجيش المصرى يتقدم فى الأناضول ويستعد للمعركة الحاسمة ، قررت روسيا وبروسيا وتبعتهما النمسا سحب قناصلها فى مصر • وجاء استدعاء القنصل الروسى ليؤكد لمحمد على مخاوفه من روسيا • ولكن محمد على وان كان قد توقع معارضة من جانب روسيا « تقلب حساباته كلها وتجبره على التوقف » فإنه كان يعتمد على انقسام الحكومات الأوروبية وعلى انتصار نهائى يحرزه فى البر أو البحر • وقد عبر محمد على عن ذلك فى حفل الوداع التى أقامها القنصل الروسى عندما استدعته حكومته محاولا اقناعه بضرورة قطع المساعدة عن السلطان وان من صالح روسيا مساندة العرب ضد الاتراك فالباب العالى مدين لروسيا وهو بحاجة للاموال لدفع تعويضات الحرب لها وهو ، أى محمد على ، اذ يطالب بسورية أو من الباب العالى فسيقدم له تعويضات تساعد على تسديد ديونه لروسيا

وحاول طمأنة الروس بالتأكيد بنفس أطماعه فى عرش السلطان حتى يزيل
مخاوف روسيا من الخطر المصرى على القسطنطينية (١٤) .

ولكن محاولات محمد على لم تقنع روسيا بالتراجع عن مساندة
السلطان العثمانى واستمرت القوات المصرية فى زحفها فاستولت على
« اطنة » وفى ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٣٢ وقعت معركة كبرى
بالقرب من « قونية » أوقع ابراهيم باشا هزيمة منكرة بالأتراك وسرعان
ما دخلت طلائع قواته « بروسا » وأصبح الطريق الى استانبول مفتوحا
أمام الجيش المصرى وعندما استنجد السلطان محمود الثانى بالدول
الكبرى سارعت روسيا للوقوف بجانبه والتزمت فرنسا جانب محمد على .
أما بريطانيا فقد أقلقها كثيرا تعزيز النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية
وتخوفت من وقوع الامبراطورية فى يد نفوذين فيقع شطرها الشمالى
تحت النفوذ الروسى ويخضع الجنوبى لمحمد على ويتحول الى منطقة
نفوذ فرنسية .

والحق ان انتصارات محمد على قد أفاققت الروس وهو ماوضحه
وزير خارجيتهم من ذلك الحين « الكونت نسلرودة » حين قال أن الهدف
من التدخل الروسى هو : (انقاذ القسطنطينية من امكانية وقوع
انقلاب يضر بمصالحنا ويؤدى الى سقوط دولة ضعيفة — الا أنها
صديقة والى استبدالها بدولة أقوى وهى تحت نفوذ فرنسا ، موردا
لآلاف المصاعب بالنسبة لنا) .

ولهذا تحركت روسيا للدفاع عن الامبراطورية العثمانية وسيادة
السلطان وعند وقوع كارثة « قونية » وصلت الى اسطنبول بعثة روسية
واذا بالسلطان يتجه ساعة يأسه الى عدوه التقليدى طالبا العون .
وتوجه « الجنرال مورافيف » بمهمة خاصة الى سواحل البوسفور

(١٤) جوزف حجار : المرجع السابق ص ٦٤-٦٥ .

ثم الى مصر حيث وصل الاسكندرية فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٨٣٣ وقدم نيابة عن القيصر الروسى عددا من المطالب لمحمد على منها أن يوقف فورا العمليات العسكرية وأن يعد بالخضوع للسلطان خضوعه لسيده • وكان مورافيف يتصرف بحزم وعندما سأل محمد على محدثه عن رغبة « صديقه القيصر » فى سبيل وضع حد للنزاع أجاب الجنرال الروسى : (ليس القيصر صديقك مطلقا بل صديق السلطان وهو يريد أن يبقى كذلك) وفى تلك الاثناء كان ابراهيم باشا يواصل تقدمه نحو استانبول دون أن ينتظر نتائج التدخل الروسى فتوجه من سهل قونية الى بروسيا وهى الهدف المباشر لهذا الزحف • ولكن أوامر محمد على القاطعة بلغته فى ٢ فبراير (شباط) فى كتاهية ، وكانت تقضى بأن يتوقف عن الزحف فى اللحظة التى تصله فيها ، تنفيذًا للوعد الذى قطعه محمد على للجنرال الروسى • فانصاع ابراهيم باشا لهذا الأمر الجازم وتوقف زحف الجيش المصرى فى كوتاهية^(١٥) •

وساد الذعر الدوائر التركية فطلب محمود الثانى رسميا المعونة العسكرية من روسيا فرسا فى ٢٠ فبراير اسطول روسى أمام شواطئ استانبول — وكانت هى المرة الوحيدة التى ظهر فيها هناك مثل هذا الاسطول برضا تركيا • وشرع فى مارس (آذار) فى انزال الفيلق العسكرى الروسى المكون من ٢٠ ألف محارب و رابط مقر أركان حربه فى « هنكار اسكلى » على الشاطئ الاسيوى من البوسفور قرب قصر السلطان الصيفى وارسل فى الوقت ذاته من جهة الدانوب فيلق روسى آخر مهمته الوصول الى العاصمة التركية بطريق البر •

وافزع التدخل الروسى بريطانيا وفرنسا فأسرعتا للعمل على احلال الصلح بين محمد على والسلطان حتى تبطلأ أى حجة تنتزع بها روسيا للاستمرار فى البوسفور فقامت الدولتان بمظاهرة بحرية مشتركة

(١٥) نفس المرجع ص ٦٩ .

عند سواحل مصر فضغظتا فى الوقت نفسه على السلطان لينزل محمد على الشام • ومن ثم تم توقيع صلح كوتاهية فى الرابع من مايو (آيار) ١٨٣٣ بين تركيا ومصر ^(١٦) •

وهذا يوضح أن التدخل الروسى كان عاملاً رئيسياً فى تحريك بريطانيا وفرنسا ضد محمد على كما انه انقذ السلطان العثمانى ومكنه من الاحتفاظ بعرشه وامبراطوريته بعد أن فرضت المعاهدة على محمد على الانسحاب من الأناضول والاعتراف باستمرار سيادة السلطان عليه وبالفعل انسحب ابراهيم باشا الى الشام وبدأ وكأن قد انتهت •

وكذلك شرعت روسيا فى سحب قواتها ولكنها كانت قد وقعت مع السلطان معاهدة « هنكار اسكلى » فى ٨ يوليو (تموز) ١٨٣٣ وكانت بمثابة حلف دفاعى بين الدولتين فى واقع الأمر ولمدة ثمانى سنوات تعهدت فيها روسيا بارسال قواتها لمساعدة السلطان « اذا اقتضت الضرورة ذلك » بينما كان على تركيا وفقاً لطلب روسيا : قفل الدردنيل فى وجه السفن الحربية الأجنبية • وفى بند سرى يسمح للسفن الروسية الحربية بعبور المضائق •

ووسعت روسيا نطاق التحالف ضد محمد على فى ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٨٣٣ عقدت اتفاقية « مودخن جراتز » ^(١٧) — كملحق لمعاهدة هنكار اسكلى — مع النمسا وسرعان ما انضمت بروسيا اليها • وقضت الاتفاقية بما يلى : « ١ ••• اسناد كيان الامبراطورية العثمانية تحت حكم الاسرة الحالية ، وتكريس كل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف • ٢ — ••• المناهضة الجماعية المشتركة لأية خطة من شأنها إلحاق ضرر

(١٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٢٩ •

(١٧) نص الاتفاقية فى : Hurewitz op. cit., p. 105.

بحقوق السلطة العليا فى تركيا سواء عن طريق تنظيم وصاية العرش المؤقت أم بواسطة التغيير التام للسلالة الحاكمة » •

وجاء فى المادة السرية الأولى « ... تطبق بصورة خاصة على باشا مصر قرارات أحكام المادة الثانية •• للحيلولة دون بسط نفوذه بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الاقاليم الأوروبية من الامبراطورية العثمانية » (١٨) •

ومع أن بريطانيا وفرنسا نجحتا فى شل النتائج الفعلية لمعاهدة هينكار اسكسى وملحقها فان الاتفاقيتين عقدتا بصورة خطيرة تحقيق أهداف محمد على وحرمتاه عن جنى ثمار انتصاره فى الحملة السورية الأولى •• وكانت قد تكونت نتيجتها فى اطار الامبراطورية العثمانية الموجودة شكليا دولتان • اذ وقعت فى قبضة محمد على مصر والسودان والشام وكيليكيا وكريت والجزيرة العربية وبقي فى قبضة الدولة العراق والأناضول وبعض مناطق اللبقان • وواضح أن الأولى أكثر اتساعا وسكانا وثراء من الثانية وكان هذا الوضع محفوظا بالمخاطر ومنذرا بالانفجار (١٩) كما كان محمد على يتطلع نحو العراق •• ومعلوم أنه حين تحركت الجيوش المصرية الى الشام وكان العراق قد أعيد الى الحكم العثمانى المباشر ، أعلنت العناصر الوطنية الكارهة للحكم العثمانى المركزى فى العراق — أعلنت ولاءها لمصر ، فقد أعلنت الثورة ضد على رضا والى العثمانى الجديد فى بغداد عام ١٨٣٢ ، كما انضم يحيى الجبلى والى الموصل الى جانب مصر ، كذلك صفوف الفارس شيخ عشائر شعر الجبريا وبدأ كأن المشرق العربى بأسره بالاضافة الى الأناضول التركى سيصبح دولة كبرى فى المنطقة (٢٠) واتخذت الدول الأوروبية

(18) Ibid, p. 106.

(١٩) لوتسكى : المرجع السابق ١٣٤ •

(٢٠) عبد العزيز سليمان نوار (الدكتور) المصالح البريطانية فى انهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ (الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٨) ص ١٦ •

وخاصة بريطانيا موقفا معاديا من محمد على وساعد ذلك تركيا على الاستعداد لاستئناف الحرب وبدأتها بعبور القوات التركية الفرات في ٢١ ابريل (نيسان) ١٨٣٩ وتغلغت فى ممتلكات محمد على ومع ذلك لم تحقق غير الفشل حيث دمرها الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا فى موقعة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو (حزيران) وفتح الطريق أمام جيشه للعاصمة التركية واشتد تخوف روسيا من هذه المعركة — من خطر هجوم صاعق يقوم به الجيش المصرى أو الاسطول المحتشد فى الاسكندرية على العاصمة التركية خاصة وأن نتيجة المجابهة الروسية المصرية فى الأناضول اذا حدثت لن تكون فى صالح الروس ولجأت روسيا الى انذار محمد على معلنة (ان بوسعها أن تقضى على مشاريعه لخلع السلطان) (٢١) •

وفى ٣٠ من نفس الشهر توفى محمود الثانى وأعلن الاسطول التركى بقيادة فوزى باشا انضمامه الى محمد على • وفقدت تركيا سلطانها وجيشها واسطولها فى أقل من شهر ولكن محمد على أمر ابراهيم باشا بعدم عبور جبال طوروس حتى لا يحدث تدخل روسى جديد • وكان محمد على مستعدا لتفاهم مع الباب العالى على أن يعترف له ولسلالته بحكم مصر وممتلكاتها وكان الباب العالى من ناحيته مستعدا — بعد هزيمته الساحقة لقبول أى شرط يقدمه ابراهيم •

غير أن الدول الموقعة على معاهدة « مودخن جراتر » وروسيا فى مقدمتها طلبت الى الدولة العثمانية فى ٢٧ يونيو (حزيران) « عدم اتخاذ قرار نهائى بدون مساعدة الدول لها ، وأن ترقب نتائج التعاون المشترك الذى اتخذ من قبلهم من أجل مصيرها » وقدمت مذكرة للباب العالى موقعا عليها من الدول الأربع التى كونت الكتلة المعادية لمصر (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) وكذلك فرنسا التى رأت المساهمة

(٢١) لوشكى : المراجع السابق ص ١٤٥ •

فى النشاط الجماعى للدول حتى تتفادى عزل نفسها وتحمى مصالحها
فى مصر والشام (٢٢) .

وأبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو (تموز) ١٨٤٠ بين انجلترا
وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا . وكانت أول وثائق التسوية التى
وضعت للمسألة المصرية وكان جوهر الحل الذى تضمنته هذه المعاهدة
اعطاء محمد على وأسرته الحكم الوراثى فى مصر ولكن بشرط أن تبقى
مصر ولاية عثمانية وقبلت فرنسا التسوية « وانضمت الى حظيرة الدول
بتوقيعها اتفاقية البوغازات فى ١٣ يوليو (تموز) ١٨٤١ وهى التى لم
تكن قد وقعت على معاهدة لندن (٢٣) .

وساهمت روسيا مع الدول الأربع فى الاتفاقية رغم انها كانت
مقيدة لنشاطها . ومن المعروف أن محمد على رفض معاهدة لندن ولكنه
اضطر أمام تدخل الدول الى التوقيع على الاتفاقية فى نوفمبر (تشرين
الثانى) ١٨٤٠ انسحب بموجبها من كل البلاد العربية ولم يبق له سوى
مصر وراثية مع احتفاظه بالسودان .

وابتداء من عام ١٨٤١ غدت بريطانيا صاحبة النفوذ الأول فى مصر
التي اهدر برنامج استقلالها .

يتضح من هذا العرض أن روسيا ساهمت بدور نشيط فى احباط
مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى فلقد أفسح وجود الجيش
الروسى فى العاصمة العثمانية المجال أمام شتى الدسائس الدبلوماسية
بين الدول المتنافسة ولم يرجع ذلك الضغط الروسى الا بنتازلات باهظة
من قبل جميع الفرقاء المعنين . وصحيح أن بريطانيا كانت قد تحركت

(٢٢) جوزف حجار : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٢٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان (دار المعارف —
القاهرة ط ١٩٦٣) ص ١٤ .

للحفاظ على مصالحها عندما رأت أن جيوش محمد على تشكل خطرا على هذه المصالح عندما وصلت الى اليمن وسارعت بريطانيا فاحتلت عدن في عام ١٨٣٩ • كما سارعت لمواجهة الخطر المصرى عندما وصل الى سواحل الخليج العربى • ولكن النشاط الروسى فى الامبراطورية يهدف أن يكون للنفوذ الروسى تفوق على غيره هو الذى دفع بريطانيا وغيرها من الدول للتحرك •

وهكذا أوقفت أوروبا الفاتح المصرى وكرست بذلك أولى علاقات حمايتها الدبلوماسية للباب العالى وتضاءلت مكانة السلطان ومحمد على على السواء وغدت مصر تحت وصاية أوروبية •

وشهد عام ١٨٤١ أيضا نزاعا ايرانيا - تركيا كاد يؤدى الى الحرب بين الجانبين فقد اقتحمت القوات الايرانية السليمانية لمساندة تمرد قام به الاقطاعيون الأكراد ضد الدولة فتقدمت روسيا وبريطانيا للتوسط فى تسوية النزاع وأدى ذلك الى عقد معاهدة أرضروم الثانية فى ٣١ مايو (ايار) ١٨٤٧ التى تخلت بموجبها ايران من ادعاءاتها فى السليمانية وبعض المناطق الأخرى فى مقابل تنازل الباب العالى لايران عن المحمرة والساحل الأيسر لشط العرب (٢٤) •

ولا شك أن فى هذا اضعاف للدولة العثمانية وهو ما سعت اليه الوساطة الروسية لأنه برغم الاتفاقية ظلت الحركات الكردية المعادية للدولة فى شمال العراق مستمرة كما أن هذه الاتفاقية قد ألحقت بالعراق ضررا كبيرا بنقلها للمحمرة والساحل الأيسر لشط العرب الى ايران •

ولم تتوقف الأطماع الروسية فى الأراضى التركية بعد تسويات ١٨٤٠-١٨٤١ ففى عام ١٨٤٤ سعى القيصر نيقولا الثانى فى محادثاته الشهيرة مع « اللورد ابردين » وزير الخارجية البريطانية لايجاد

(٢٤) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٧١ •

تقارب مع بريطانيا للوصول الى تفاهم بالنسبة للمستقبل واتضحت نواياه من وصفه للسلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » وأعرب عن رأيه فى أن الامبراطورية العثمانية فى طريقها الى الانهيار وأنه يحسن اتخاذ الأهمية للامر تقدما وأبدى رغبته فى الحصول على العاصمة العثمانية وفى المقابل تحصل بريطانيا على مصر ، وكريت اذا شئت أيضا • وقال انه بهذا يبرهن على استعدادده لمراعاة مبدأ التوازن الدولى واعطاء تعويض عادل لبريطانيا • وسيكرر نيقولا هذا العرض لابردين عندما أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا فيما بعد فى عام ١٨٥٣ ولكن بريطانيا ترفض العرض (٢٥) •

(٣)

الاطماع الروسية فى الأماكن المقدسة وحرب القرم

تضمنت معاهدة كوتشك قينارجة لعام ١٧٧٤ مادتين أثار تفسيرهما خلافا كبيرا فقد نصت احدهما (١٤) على السماح لروسيا ببناء كنيسة مسيحية فى « غلطة » — وهى جزء من استانبول — وابقاء تلك الكنيسة تحت حمايتها على الدوام ووعدت تركيا فى مادة أخرى (٧) بحماية الكنيسة والديانة المسيحية فى ممتلكاتها والسماح لسفراء روسيا بمخاطبة السلطات نيابة عن كنيسة غلطة • وأدعى الروس أن لهم بناء على المادتين حقا فى تمثيل الطوائف المسيحية فى البلقان وحمايتها ولما كان من شأن الاعتراف بهذا الحق قيام خطر التدخل بصفة دائمة فقد أصرت تركيا على رفض الاعتراف بهذا الحق المزعوم •

ثم ظهرت مسألة الأماكن المقدسة وهى مسألة كانت تثير عواطف جدية وكانت تنصب على ادارة أماكن الحج فى القدس ولا سيما كنيسة الميلاذ فى بيت لحم : وقد دأبت الحكومة التركية على ضغط التوازن

(25) Grant, Temperly, op. cit., p. 265.

بين الدعاوى المتضاربة للاتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والارثوذكس أو المسيحيين الروس واليونانيين من ناحية أخرى • وقد كان للحكومة الفرنسية ادعاء تقليدى يرجع الى زمن الصليبيين فى أن تعتبر حامية للمسيحيين فى الشرق ولكن القياصرة الروس بدعوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا بدعواهم الخاصة فى هذا الصدد ، فكان أن عزز الشعور الدينى الخصومات القومية والمطامع السياسية وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة فى ثلابة المزود المقدس أشد العواطف تأججا^(٢٦) ولقد تفوق الأغريق والكنيسة الارثوذكسية فى الأراضى المقدسة خلال الثلاثينات للقرن التاسع عشر نتيجة للأموال التى كانت تقدمها روسيا والحجاج الروس والرعاية الروسية الكبيرة • ونشأ عن ذلك أن انتقل بطريرك بيت المقدس الارثوذكس الى القدس بعد أن كان مقر اقامته فى استانبول •

وكانت روسيا تنظر الى السياسة البريطانية والفرنسية التى نشطت فى اقامة القنصليات فى بيت المقدس وادعاء حماية اليهود والمسيحيين الكاثوليك والمذهب الأنجلي مع نهاية الوجود المصرى فى الشام — بعين القلق وما فتئت تسعى لقطع خط الرجعة على النفوذ الفرنسى الكاثوليكي خاصة وان عدد الارثوذكس من الجاليات الأجنبية والوطنيين يزيد عن عدد اللاتين والكاثوليك وان روسيا التى نفضت فى روح الارثوذكسية وادعت حماية جميع الكنائس الشرقية قد أصبحت تتمتع بعطف الوطنيين من أبنائها ، وتمارس سلطانا غير مباشر على الأرمن والسريان والقبط والأقباش • وفى عام ١٨٤٧ تكونت فى روسيا على سبيل المثال الجمعية الروسية — الفلسطينية وهى التى تحولت عام

(26) Ibid. pp. 268 — 269.

* لمزيد من التفاصيل عن بداية الاطماع الروسية فى حماية الارثوذكس فى الدولة العثمانية راجع :

Sumner op. cit., pp. 30 — 32, 78.

١٨٩٣ الى الجمعية القيصريّة الارثوذكسيّة بفلسطين وقامت هذه الجمعية بكثير من الأعمال الدعائيّة لخدمة النفوذ القيصري الروسي بالمنطقه (٢٧) .

ولم يرض ذلك كله فرنسا وتقدمت حكومة فرنسا عام ١٨٥٠ ائى الباب العالى تبين له تمسك فرنسا بامتيازاتها وفقا لمعاهدة ١٧٤٠ ، وأن الامتيازات التى منحت لغير الفرنسيين فى تاريخ لاحق تلغيتها ، أما روسيا فلم تكن من ناحيتها مستعدة للتنازل عما اكتسبته الكنيسة الارثوذكسية من حقوق . ولم يستطع الباب العالى أن يوفق بين مطالب الطرفين .

وفى محاولة للضغط على السلطان العثمانى احتلت روسيا ولايتى الدانوب وأصبحت مطالبها خطرا كبيرا يهدد الدولة نفسها . وتكونت لجنة لبحث المطالب الفرنسية — وكان لفرنسا اسطول قوى فى البحر الأبيض يمكنها بواسطته تهديد ممتلكات الدولة — فرأت أن تشترك فرنسا وروسيا فى الاشراف على الأماكن المقدسة ، ولكن القيصر الروسى رفض وهدد باستخدام القوة وفى نفس الوقت هدد السفير الفرنسى باستخدام القوة اذا أقر الباب العالى مطالب روسيا (٢٨) .

وعلى هذا الأساس كانت مسألة الأراضى المقدسة مقدمة للحرب . فأمام موقف فرنسا المتشدد قرر القيصر الروسى القيام بمناورات حربية على الحدود العثمانية وأرسل بعثة الى استانبول برئاسة مستشاره « متشكوف » بهدف تهديد السلطان حتى يمنعه من الاستجابة لمطالب

(٢٧) عز الدين غودة (الدكتور) دراسة بعنوان « الصراع الدولى حول فلسطين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور » ، منشورة فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية عدد ١ مارس (آذار) ١٩٦٩ ص ٧٥ وما بعدها .

(٢٨) محمد مصطفى صفوت (الدكتور) : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس (معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة) ص ٢٩-٣٠ .

فرنسا وكان يريد فرض حماية روسية على رعايا السلطان الارثوذكس
... وتصادت الأزمة •

وقدم متشكوف مطالب بلاده وكان من بينها تعيين البطارقة الأربعة
الارثوذكس فى الدولة العثمانية مدى الحياة — حتى لا يكون للسلطان
سلطة فى ابعادهم أو عزلهم لا سيما وقد كان لهم نفوذ سياسى كبير
الى جانب نفوذهم الدينى •

وعندما استكملت روسيا استعدادها الحربى على الحدود التركية
عند نهر بروث قدم متشكوف انذارا الى السلطان يطلب بـ «ضمانات»
وجدتها بريطانيا تهدد بالخطر استقلال الدولة العثمانية وعاد متشكوف
يصر على اغلاق الدردنيل أمام سفن فرنسا وانجلترا ، كما طالب فى
١٣ مايو (ايار) ١٨٥٣ — فى مقابلته للسلطان — بعزل رئيس الوزراء
وزير الخارجية فخضع السلطان لمطلبه ، وتحت ضغطه عين السلطان
رشيد باشا وزيرا للخارجية ومع كل هذا فشل متشكوف فى مهمته لأن
الأتراك رفضوا انذاره بعد أن دعت بريطانيا لعقد اجتماع من ممثلى
فرنسا والنمسا وبروسيا للتوسط فى النزاع • فما كان من القيصر
الروسى الا أن أمر جيوشه باحتلال ولايتى الدانوب (الافلاق
والبغدان) فأرسلت انجلترا وفرنسا اسطوليهما الى خليج بيسيك
خارج الدردنيل • واحتجت الدول على احتلال الروس للولايتين
الدانوبيتين •

وفى ٣١ مايو أرسل نسلرود بناء على تعليمات سيده انذارا الى
تركيا ، بأن الجيوش الروسية ستحتل الولايتين الدانوبيتين اذا لم تجب
مطالب روسيا كاملة ، ووصل الانذار الى القسطنطينية فى العاشر من
يونيو (حزيران) وقبل وصوله كانت تركيا ، لتفوت على الروس خطتهم ،
قد اعترفت بحقوق رعاياها الارثوذكس ورفض وزير خارجيتها الانذار
الروسى فى ١٦ من نفس الشهر •

وفى السابع من يوليو (تموز) وصلت تركيا أنباء عبور الروس حدودها ومع ذلك لم يعتبر السلطان ذلك سببا للحرب (٢٩) .

وفى ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٥٣ أعلنت تركيا الحرب على روسيا وبدأتها باطلاق النار على الجنود الروس الذين عبروا نهر بروث واحتلوا الافلاق والنفدان . وأجاب الروس باغراق الاسطول التركى على مقربة من سينوب فاجتاحت بريطانيا موجة من السخط ورأت دخول الاساطيل البريطانية والفرنسية البحر الأسود لوضع حد لاعتداءات الاسطول الروسى وفى ٢٧ مارس (آذار) ١٨٥٤ قررت بريطانيا اعلان وقف الحرب ووقفت فرنسا الى جانبها وفى ١٠ ابريل (نيسان) عقدت حكومتا بريطانيا وفرنسا حلفا رسميا ضد روسيا ، وبذا أصبح نابليون الثالث حليفا للملكة بريطانيا .

وفى ٣ يونيو (حزيران) طلبت النمسا من روسيا اخلاء ولايتى الدانوب ورأت روسيا انه لا سبيل لها فى حرب فى البلقان مع الجيوش النمساوية فى الوقت الذى تهددها فيه أساطيل الحلفاء فى البحر الأسود وامام نصح بروسيا لروسيا بالانسحاب من ولايتى الدانوب وخشية روسيا من انضمام بروسيا الى النمسا ونتيجة لذلك وضعت النقاط الأربع بين فرنسا والنمسا خلف ظهر بريطانيا . وهذه النقاط الأربع هى التى سيرت دبلوماسية حرب القرم .

وجاء فى هذه النقاط ان اقامة علاقات طبيعية بين تركيا وروسيا يجب أن تكون على الأسس الآتية :

١ - وضع ضمان أوروبى لولايتى الدانوب محل حماية روسيا لها .

٢ - تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب .

(٢٩) نفس المرجع ص ٣٥-٣٦ .

٣ — إعادة النظر فى اتفاقية المضائق ١٨٤١ لصالح توازن القوى
فى أوروبا •

٤ — ترك الروس ادعاءاتهم حق حماية الرعايا المسيحيين للدولة
العثمانية وبدلا من هذا تأخذ الدول الأوروبية وعدا من السلطان بتحسين
حالة رعاياه المسيحيين •

وقامت حرب القرم فى الواقع على أساس النقطة الثالثة وعلى
أساس تفوق قوة روسيا فى البحر الأسود لأن هذا كان له أثره على
تركيا وعلى توازن القوى فى أوروبا • واضطرت الحكومة البريطانية الى
قبول النقطة الأربع بعد تردد • ولكن فى الوقت الذى وصلت الى فيينا
موافقة الانجليز وصلتها أنباء انسحاب الروس من ولايتى الدانوب •
ودخلت قوات النمسا اللاتيتين • وقد ترك انسحاب الروس الحلفاء فى
حيرة من أمرهم فهم قد دخلوا الحرب لوقف العدوان الروسى واذا
يروسيا تنسحب من ولايتى الدانوب فكيف يهاجم الحلفاء روسيا ؟ ولم
يكن أمامهم بعد هزيمتهم السياسية أمام النمسا الا خوض الحرب
ضد روسيا فنابليون الثالث يرغب فى بحث بولندا من جديد على نطاق
واسع ولكن بريطانيا لا تريد اغصاب النمسا وبروسيا وانتهى الأمر
الى القيام بحرب بحرية وبرية ضد القاعدة الروسية فى اسبستبول
وبذلك يقضون على قوة روسيا البحرية وينفذون النقطة الثالثة •
استطاع الحلفاء أنزال جوالى ٣٥ ألف جندى فى شبه جزيرة القرم ،
وفى سبتمبر حاول الروس منعهم من التقدم ولكن الهزيمة حلت بهم فى
موقعة « ألما » وأغرق الأسطول الروسى عند مدخل سبستبول وحاول
الروس مرتين طرد الحلفاء وفشلوا ولكن الحلفاء لم يأخذوا اسبستبول
وظل الأمر على حاله حتى يونيو (حزيران) ١٨٥٥ وكان معنى هذا
العودة الى ميدان السياسة •

(٣٠) فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ترجمة أحمد نجيب هاشم
ووديع الضبع (دار المعارف — القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢١ •

أمام عقد تحالف فرنسى برىطانى نمسوى فى ٢ دىسمبر (كانون الأول) ١٨٥٤ أعلن الروس فى ٢٩ منه قبولهم للنقاط الأربع •

وعقد مؤتمر للصلح فى فيينا فى ١٥ مارس (آذار) ولكن الروس رفضوا مقترحات الحلف القاضية بتحديد قواتهم فى البحر الأسود فانفرط عقد المؤتمر • وعاد الحلفاء للحرب — لكن النمسا رفضت دخولها — فسقطت سباستيول فى أيديهم فى ٨ سبتمبر (ايلول) وكان هذا يعنى انتصار فرنسا وبريطانيا فى حرب القرم •

ولما أحست النمسا بنية فرنسا التقارب مع روسيا حتى يمكنها اطلاق يدها فى أوروبا بعقد حلف روسى — فرنسى • قررت العمل على فرض النقط الأربع كما فسرها الحلفاء ، على روسيا والاشتراك مع الدول الثلاث فى ضمان سلامة الدولة العثمانية وفسر « بول » امبراطور النمسا النقطة الأولى فى صالح بلاده فتتقطع يساريا من روسيا ، لتبعد الأخيرة عن مصب الدانوب كما فسرت النقطة الثالثة بحيرة البحر الأسود ، كما اختفت القوة البحرية الروسية فى هذا البحر وقرر الحلفاء ألا يكون لتركيا قوة بحرية فيه • واضطرت روسيا التسليم أخيرا ووقعت مقدمات الصلح فى أول فبراير (شباط) ١٨٥٦ وبذلك انتهت حرب القرم •

وتعهد السلطان العثمانى بالعمل على المساواة التامة بين رعاياه المسلمين والمسيحيين وأصبحت الملاحة حرة فى كل حوض نهر الدانوب • وفتحت ولايتا الدانوب استقلالها تحت سيادة السلطان وضم جزءا من بسارابيا اليها • وعادت الحدود بين تركيا وروسيا فى آسيا الى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأصبحت تركيا تتمتع بكل الحقوق فى ظل القانون الدولى ، واتفقت الدول المتعاهدة على احترام ممتلكات الدولة العثمانية والمحافظة عليها ، وان أى اعتداء على تركيا يكون معناه دخولها الحرب الى جانبها (النمسا ، فرنسا ، بريطانيا)^(٣١) •

(٣١) صفوت : المرجع السابق ص ٤٧—٤٩ •

وهكذا فان روسيا التى استغلت النزاع على الأماكن المقدسة فى فلسطين لتقوية نفوذها فى أملاك الدولة العثمانية فى البلقان خرجت من النزاع خاسرة وأظهرت حرب القرم التى نشأت عن هذا النزاع مدى ما عليه روسيا من ضعف ولم يعد لها دور كبير فى مسائل أوروبا ولم تستعد مركزها فى أوروبا الا فى سنة ١٩٤٥ ، وكان المتصرف فى شئون أوروبا دول غرب ووسط القارة •

واذا كانت نتائج حرب القرم جاءت سيئة بالنسبة لروسيا فقد أدت الى خسائر كبيرة بالنسبة للدولة العثمانية وهو ما جاءت به مقررات مؤتمر باريس الذى عقد لتسوية الأوضاع بعد هذه الحرب •

فقد افتتح المؤتمر فى ٢٥ فبراير (شباط) ١٨٥٦ وحضرته بريطانيا وفرنسا والنمسا والمجر ولكن ظل الاجتماع الى ١٦ ابريل فلقد تحول الى اجتماع أوروبى • وقبل التوقيع على المعاهدة أصدر الباب العالى خطأ همايونيا ضمنه حقوق الطوائف المسيحية فى الدولة ، وأعلن رغبته فى ادخال تنظيمات جديدة كما أعلن المساواة التامة بين الأديان والجنسيات المختلفة ، وأخذ المؤتمر علما بهذا العهد • واجتمع المؤتمر لحل مشكلة الشرق الأدنى وقبل الروس حياد جزائر آلانند Aaland وحلت مشكلة العلاقات الروسية التركية فى ثلاثة أمور :

١ — وعد السلطان بالاصلاح •

٢ — اعلان حياد البحر الأسود •

٣ — استقلال ولايتى الدانوب عن حماية روسيا • وكان من أهم شروط المعاهدة تحرير رومانيا وجعلها دولة مستقلة حتى تصبح حاجزة بين تركيا وروسيا ولتتقف أمام مطامع النمسا فى السيطرة على وادى الدانوب كله •

وأصبحت مسألة الدولة العثمانية رسميا مسألة أوروبية • وقد اكتسبت معاهدة باريس تركيا مركزا خاصا وضمنت لها على الأقل

نظريا وقوف الدول الأوروبية الغربية الى جانبها ضد روسيا بينما دمرت قوة روسيا الحربية لمدة عشرين سنة • ولم تعد تهتم كثيرا بمسائل أوروبا لمدة ١٥ سنة ، وأصبح مستقبل روسيا هو فى الامبراطورية وفى التوسع فى آسيا الشمالية وآسيا الوسطى وكرست جهودها الى إلغاء شروط باريس التى تمس البحر الأسود وبسارابيا (٣٢) •

وعلى الرغم من خروج روسيا خاسرة من مؤتمر باريس فانها لم توقف نشاطها فى فلسطين بل استمر ذلك النشاط على يد الجمعية الروسية بفلسطين فقامت — تحت ستار رعاية شئون الحجاج والبعثات الدينية وتيسير أماكن الإقامة وطرق الانتقال بالأماكن المقدسة بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفوذ القيصرى الروسى بالمنطقة وزاد هذا النشاط بنوع خاص من بعد أن ترأسها الأمير « سيرج » شقيق الاسكندر الثالث فى أعقاب حرب القرم حيث أنشأت شركة للملاحة والنقل الى فلسطين ومكتبا لهذا الغرض بأوديسا ، كما قامت بإنشاء عدد كبير من الجمعيات الخيرية والمدارس والمستشفيات فى القدس والناصرة وحوران ودمشق ، ومدرسة للطب فى بيروت • وأرسلت الحكومة الروسية فى أعقاب معاهدة باريس بعثة برئاسة موظف روسى كبير (M Boris De Mansour off) لدراسة الأوضاع بالأماكن المقدسة وتقوية روح الأرثوذكس المقيمين بها • كذلك أرسلت بعثة دينية أخرى فى فبراير ١٨٥٨ ، قامت بشراء الأراضى وإنشاء المباني والمؤسسات فى ضواحي المدينة المقدسة لإقامة الارساليات واستقبال الحجاج الروس • وغدت الجمعية الروسية تباشر اشرافها على جميع هذه المؤسسات بالمدينة المقدسة ، وكان هذا مقدمة للنفوذ الروسى بالمنطقة • فأصبحت اللغة الروسية شائعة بين الارثوذكس ، كما أصبح السعى الى الكنيسة الروسية والحبشية الذى استهدفته بعثة روسية الى الحبشة عام ١٨٩٧ ، وبعثة النجاشى الى روسيا عام ١٨٩٥ احدى خطوات هذه السياسة التى

(٣٢) فشر : المرجع السابق ص ٢١٩ •

استهدفت ضد نفوذ القيصرية الى قلب افريقيا • وعدلت روسيا فيمة
بعد عن تدعيم قنصليتها بدمشق من أجل الاشراف على رعاية مصالحها
بالقدس وأنشأت لها قنصلية بالمدينة المقدسة كان أول من ترأسها
(M. Dorgaboujin off) • وبقي راسخا في الازدهان أن روسيا مازالت
(من الناحية الفعلية) حامية الأرثوذكس^(٣٣) •

وشاركت روسيا في الأحداث التي قامت في لبنان عام ١٨٦٠
وتدخلت في شئونه مع المتدخلين من الدول الأوروبية وكان ذلك بطبيعة
الحال تدخلا في شئون الدولة العثمانية فعندما أعلنت فرنسا عن نيتها
في أعقاب المذابح التي جرت في لبنان في ذلك الوقت وجدنا روسيا
وبريطانيا تتخوفان من هذا التدخل الذي قد يؤدي الى استيلاء
الفرنسيين على الشام وأصرتا على عقد مؤتمر دولي للحد من تحرك
نابليون الثالث ، وفي ٥ سبتمبر (ايلول) ١٨٦٠ وقعت ست دول
(انجلترا ، فرنسا ، النمسا ، بروسيا ، روسيا ، وتركيا) على الاتفاقية
التي قررت أن القوة الفرنسية التي تنزل لبنان يجب ألا يتجاوز عددها
١٢ ألفا والا تبقى أكثر من ستة أشهر وفضلا عن ذلك أوفد الى سوريا
مندوبين عن الدول الموقعة على الاتفاقية • ألفرا لجنة تتحرى أسباب
الأحداث اللبنانية وتكشف عن المذنبين الحقيقيين وتعاقبهم وتتلافى
وقوع أحداث مماثلة عن طريق ايجاد نظام جديد للبنان — ومع ذلك
أنزلت فرنسا قوات في بيروت عشية الاتفاق ولما حاول نابليون الثالث
تجاهل الاتفاق وابقاء قواته في سوريا طالبت انجلترا والنمسا بانسحاب
فرنسا وهددتا بالحرب فتم الانسحاب في يونيو (حزيران) ١٨٦١^(٣٤) •

ومعروف أن هذه الأحداث أدت الى وضع « نظام أساسي »
أصبح بموجبه جعل لبنان منطقة ذات حكم ذاتي يترأسها حاكم مستقل

(٣٣) عز الدين فودة : المرجع السابق ص ٧٦—٧٧ •

(٣٤) لوتسكي : المرجع السابق ص ١٦٤—١٦٥ •

عن ولاية بيروت ودمشق ويتبع الباب العالي مباشرة • ويلاحظ أن هذا التدخل الدولى الجديد والذى شاركت فيه روسيا يضعف من سلطة الباب العالي ويخدم مصالح دول أجنبية فى مقدمتها فرنسا كما أن النظام الذى صيغ على أساس طائفى ظل مقلقا للوضع فى لبنان بعد ذلك •

(٤)

الحرب الروسية - التركية ١٨٧٧ وأثرها على العرب

أساءت الهزيمة التى لحقت بروسيا فى حرب القرم الى سمعة السياسة الخارجية الروسية فهبط دورها فى العلاقات الدولية وقد حرمتها معاهدة باريس المرهقة من حق امتلاك اسطول حربى وحصين على البحر الاسود • وكانت الحدود الجنوبية لروسيا غير محمية ، الأمر الذى كبل أيدي القيصرية ولم يعطها امكانية انتاج سياسة خارجية نشيطة •

لذلك فان المحتوى الأساسى لسياسة روسيا الخارجية فى نهاية العقد السادس وفى العقد السابع للقرن التاسع عشر كان العمل من أجل تصفية الشروط التى أمليت على روسيا فى صلح باريس • وقبل كل شئ البنود المتعلقة بحياد البحر الاسود •

وكانت سياسة روسيا الخارجية مركزة فى يد القيصر الاسكندر الثانى الذى لم يكن له المام حقيقى بشئون السياسة الخارجية أو الداخلية وكان غنيذا مترددا تنقصه الحيوية والنشاط ولكنه بعد حرب القرم أوكل مهمة وزارة الخارجية الى « جورنتشاكوف Gorchakov » الدبلوماسى الحاذق وقد استغل الرجل التغيرات التى طرأت على الوضع الدولى لكى يزيل عزلة روسيا خاصة وان التحالف الذى انتصر فى حرب القرم كان قد تفكك وتأزم الوضع فى أوروبا بشدة ونشأت بين أكبر

الدول الأوروبية تناقضات حادة أدت الى عدد من الاشتباكات المسلحة وفى هذا الوضع سلكت الحكومة القيصريّة سياسة المناورة ، مستغلة التناقضات بين الدول الكبرى^(٣٥) .

وكانت المسائل التى تشغل بال انسياسة الروسية فى ذلك الوقت : مسألة آسيا الوسطى والجامعة الصقلية ، والعلاقات الألمانية — الروسية .

كان تهديد روسيا للهند فى حرب القرم تهديدا غير مباشر ، تهديدا للمواصلات البريطانية الى الهند ، وذلك عن طريق السيطرة على المضائق . ولكن بعد ذلك بعشرين سنة كان تهديد روسيا للهند تهديدا مباشرا ، اذ فى خلال عشرين سنة كانت معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز قد أصبحت فى اطار روسيا ، فمنذ عام ١٨٦٤ كان التوسع الروسى مستمرا فى تركستان وفيما بين سنتى ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ سقطت طشقند ، وسمرقند ، فى يد الروس وأصبحت بخارى امارا تابعة لبطرسبرج . وأثار تقدم الروس فى آسيا الوسطى مخاوف بريطانيا التى رأت فيه تهديدا واضحا للهند ، وخشيت من خضوع افغانستان وايران للنفوذ الروسى .

وأما حركة الجامعة الصقلية (بانسلافيزم Panslavism) فكانت بصفة عامة ترمى الى ضم جميع صقلية أوروبا تحت جناح روسيا . وهذه الحركة تؤثر بطبيعة الحال فى علاقات روسيا مع الدولة العثمانية ومع الامبراطورية النمساوية المجرية لأنه جانبا من رعايا الدولتين من الصقلية . وكان مركز الحركة هو موسكو ورأسها « بوجادين Pogadin » استاذ التاريخ فى جامعة موسكو ، وتطورت فكرة هذه الحركة الى العمل على تخليص الصقلية الارثوذكس فى البلقان من الحكم العثمانى . ومن ثم كان خطر حركة الجامعة الصقلية

(35) Grant Temperly : op. cit., p. 278.

على الدولة العثمانية لأنها تعنى فى حالة نجاحها القضاء على سلطة الدولة وعلى الامبراطورية العثمانية فى أوروبا •

وكان من رجال هذه الحركة « فادايڤ Fadayeve » وهو ضابط عمل فى الجيش المصرى فى عهد الخديو اسماعيل ، وكان يأمل فى تقوية الجيش المصرى ليستطيع تحدى الدولة العثمانية • ومنهم أيضا « اجناتيف Ignatiev » سفير روسيا فى استانبول وكان يعمل بنشاط على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية^(٢٦) •

وإذا انتقلنا الى تركيا مع بدايات النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدنا انه فى الوقت الذى تطورت فيه الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية لم يكن متوفرا فى تركيا والاقطار العربية التابعة لها سوى أولى مقدمات الرأسمالية وقد تأخرت عمليات التخلص من النظام الاقطاعى وبدأ الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية ولكن ذلك كان يجرى بخطوات بطيئة للغاية وفى ظروف متناقضة الى حد كبير •

وقد تحولت تركيا الى سوق ثم الى شبه مستعمرة للدول الأوروبية الرأسمالية فقد مهدت السبيل للرأسمال الأجنبى مرحلة التنظيمات الثانية التى بدأت بـ « خط همايونى » عام ١٨٥٦ التى اكتسبت ، بحكم صلح باريس شكل الالتزامات الدولية وفتحت بابا للرأسمال الأجنبى اذ تعهدت الدولة العثمانية بمنح امتيازات السكك الحديدية والبنوك وصناعة التعدين وغيرها من الامتيازات الى الرأسماليين الأجانب • كما منحتهم حق شراء الأراضى من الامبراطورية العثمانية وأعطت عملاءهم المحليين عددا من التسهيلات •

وهكذا كان صلح باريس لعام ١٨٥٦ فاتحة لتحويل تركيا والاقطار العربية التابعة لها الى شبه مستعمرة للرأسمال الأجنبى • والى جانب هذا كانت الحرب التى سبقت معاهدة باريس من ١٨٥٣ — ١٨٥٦ بداية

لتوريط تركيا فى الديون ففى عام ١٨٥٤ عقدت تركيا لتسديد النفقات العسكرية أول قرض خارجى استلمت منه ٦٠ مليوناً فقط من أصل ٧٥ مليوناً من الفرنكات وهى قيمة القرض الأصلي وخصصت ما كانت تدفعه مصر لخزينة الدولة كضمان لهذا القرض • وفى عام ١٨٥٥ أبرم القرض الثانى ومبلغه ١٢٥ مليون فرنك وخصصت مداخيل جمارك أزمير وسوريا ضماناً له • وقبيل عام ١٨٧٤ بلغت قيمة القروض الاسمية ٥٣٠٠ مليون فرنك لم تستطع منها تركيا سوى ٣٠١٢ مليوناً فقط أى ٥٦٨٪ من مجموع قيمة القروض وحسنت البنوك (الفرنسية فى الغالب والبريطانية الى حد ما) ما يربو على مليارى فرنك أو ٤٣٢٪ كفوائد وعمولات وغير ذلك (٣٧) •

ولكى تتخلص من القيود التى فرضتها معاهدة باريس عليها ، تحركت روسيا فى عام ١٨٧٠ وجاء هذا التحرك فى صورة مذكرة وزعها وزير خارجيتها جوزتشاكوف جاء فيها : ان روسيا لا تستطيع أن تنفذ تلك البنود فى معاهدة باريس التى تهدد أمن حدودها ، وذلك لأن المعاهدة قد خرقتها الدول الأخرى •

وقد وافق المؤتمر الدولى المنعقد فى لندن عام ١٨٧١ على طلب روسيا ونالت روسيا من جديد حق انشاء الحصون على شواطئ البحر الأسود ، وفى ان تملك هناك اسطولها البحرى • وكان هذا نجاحاً كبيراً للدبلوماسية الروسية وطد بشكل ملموس مواقع روسيا دولياً (٣٨) •

وكان قسم كبير من اليونانيين والرومانيين وكذلك السلاف

(٣٦) ييبفلنوف : المرجع السابق ص ٣٩٨ •

(٣٧) صفوت : مؤتمر برلين وأثره فى البلاد العربية (معهد الدراسات العربية — القاهرة ١٩٥٧) ص ١٧-١٨ •

(٣٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٧٤-٣٧٥ •

الجنوبين (البلغار والهوسينيون والهرسكيون وقسم من الصرب) لا يزالون تحت الحكم العثماني وناضلت شعوب البلقان من أجل التخلص من الحكم التركي وتطلعت بأنظارها الى روسيا اذ أن الشعوب السلافية كانت تعتبر روسيا الشقيقة الكبرى وقد سعى الحكم المطلق فى روسيا الى اعادة نفوذه فى البلقان مستغلا هذه المشاعر • ودافعت روسيا عن مصالح السلاف على المسرح الدولى وقدمت لهم مساعدة مادية وأيدت الكنيسة الارثوذكسية العملية ولكن الحكومة القيصريّة كان يهملها من كل هذا وبالدرجة الأولى تعزيز مواقعها فى الشرق الأدنى وفى شبه جزيرة البلقان •

وفى ١٨٧٥ قامت انتفاضة ضخمة فى البوسنة والهرسك ، وفى ابريل (نيسان) ١٨٧٦ فى بلغاريا وقد قمع الاثراك هذه الانتفاضات بوحشية •

وفى صيف ١٨٧٦ بدأت صربيا والجبل الأسود الحرب ضد تركيا ، الا أن القوى لم تكن متساوية وانتهى الأمر بتغلب الأتراك • كما تآقت ولايتا الافلاق والبفدان الى الاستقلال نهائيا عن الدولة ، وبدأت اليونان ترنو ببصرها الى توسيع حدودها الشمالية • وكان لتأييد الكنيسة المسيحية أثر كبير فى اثارة الهياج على الدولة العثمانية فى البلقان وقد قامت الثورة فى البلقان يدفعها الشعور القومى والدينى والتدخل الاجنبى معتمدة على مساعدة روسيا وقد لاقت انتفاضات السلاف مساعدة حارة فى روسيا وأعرب الكثيرون عن رغبتهم فى الانضمام كمتطوعين الى الجيش الصربى •

ولقد أصيب الجيش الصربى بعدد من الهزائم • ولم ينقذ الصرب من هزيمة كاملة الا تدخل روسيا واعلانها عن التعبئة الجزئية • فوقعت صربيا معاهدة صلح مع تركيا بينما واصلت بلاد الجبل الاسود الصغيرة النضال وحدها •

والحق أن الصرب وروسيا كانتا تعملان على خدمة مصالحهما قبل كل شيء فالصرب ترغب في الاستقلال الكامل وربما تطمح الى توسيع ممتلكاتها ، وروسيا تهتم قبل كل شيء بالسيطرة على صقالبة البلقان وبالاشراف على المضائق واسترجاع بساريا التي ضمها مؤتمر باريس التي ولايتي الدانوب •

ورفضت تركيا ، بتحريض من بريطانيا ، اقتراح روسيا التسوية السلمية للنزاع وكانت سياسة روسيا في أول الأمر ترمى الى التدخل مع ألمانيا والنمسا لاقتناع الباب العالي بضرورة اتخاذ الاجراءات الحاسمة لاعادة الطمأنينة الى المناطق الثائرة ولكن الأمور تشعبت ورأت فرنسا ألا يقتصر التدخل على الدول الثلاث السابقة • بينما رأت بريطانيا التدخل بقوة لمنع تفوق النفوذ الروسى • وأخذ السفير الروسى فى استانبول « اجناتيف » على عاتقه عرقلة الأمور حتى تستفحل الثورة فى البلقان ، وكان يهيمه مقاومة النفوذ بين النمساوى والبريطانى والعمل على تفوق نفوذ روسيا بينما القيصر الروسى يرى ألا تقدم روسيا على أية خطوة دون موافقة النمسا خاصة بعد أن أعلن بسمارك لروسيا انه موافق سلفا على كل أمر تتفق عليه النمسا وروسيا بخصوص الدولة العثمانية وممتلكاتها •

وأخيرا وفى ابريل (نيسان) ١٨٧٧ اضطرت الحكومة الروسية أن تبدأ الحرب اذ أن ترددها كان يعنى استسلامها ويؤدى الى خسارتها لنفوذها بين الشعوب السلافية وفى شهر مايو (ايار) دخلت رومانيا الحرب كذلك ضد تركيا •

ولم تكن روسيا مستعدة لحرب طويلة الأجل • فقد مرت فى سبعينات القرن التاسع عشر بتغيرات داخلية خطيرة شملت حياة البلاد ونظم الامبراطورية نفسها وخضعت روسيا للعوامل التي خضعت لها دول غرب أوروبا من قبل • كالانقلاب الصناعى ، وانقلاب الاصلاح

الخاص بملكية الأرض الى صراع قوى بين اتوقراطية قيصرية مستبدة يؤيدها الجيش والبوليس والكنيسة وبين نوع من الاشتراكية المتأثرة بأراء كارل ماركس • واستمر ذلك الصراع حتى ثورة ١٩١٧ •

وعند دخولها الحرب عام ١٨٧٧ كان وضعها المالى متدهورا والتدريبات العسكرية متخلفة فى نواح كثيرة وعارضت أكثرية القيادة العليا التى تربت فى ظروف حكم نيقولا ، تطبيق التكنيك الحديث • ولكن الروح القتالية فى الجيش الروسى كانت عالية بسبب عطفهم على اشقائهم السلاف ورغبتهم فى مساعدتهم من أجل التخلص من الأتراك^(٣٩) • كما كانت لدى القيصر رغبة ملحة فى دخول الحرب منتها قىام الثورة فى البوسنة والهرسك والصرب رغم ان وزراءه نصحوه بأن هذه الحرب ستضعف البلاد ماليا ولن تجنى منها مغنما ولكن القيصر كان يرى ضرورة شغل الرأى العام الروسى عن مناقشة المسائل الداخلية بقضية خارجية •

أما الجيش التركى فكان مسلحا بأحدث الأسلحة البريطانية والالمانية وان كانت تدريباته العسكرية غير كافية وكانت القيادة التركية تتبع التكنيك الدفاعى • وفى الوقت الذى كانت فيه الأمور مؤثرة للقلق فى استانبول عزل الدستوريون عبد العزيز وأحلوا محله مراد ، ورأس مدحت الوزارة وكان هذا التطور فى الدولة العثمانية مؤذنا بالقضاء على النفوذ الروسى فى استانبول وعلى نشاطات « اجناتيف » الأمر الذى دفع روسيا الى اتخاذ سياسة ايجابية تجاه الدولة العثمانية •

وزاد الحال سوءا قىام الثورة فى بلغاريا ورأى الترك فيها أصابع الروس واضحة وتلا قىام الثورة فى بلغاريا اعلان الصرب والجبل الاسود الحرب على تركيا • ورأت روسيا فى هذا الموقف فرصتها ، فسارعت وانتقلت مع النمسا على توزيع الغنائم ، ولذا عقدت معها اتفاقية « رشتادت Reichstadt » وفيها اتفق الطرفان على مبدأ

(٣٩) بيبانوف : المرجع السابق ص ٣٩٦ •

عدم التدخل • فإذا انتصر العثمانيون على الصرب يجب التدخل لمنع العثمانيين من الانتقام وحرمانهم من ثمرة النصر • وإذا انتصرت انصرب تتدخل الدولتان فتأخذ روسيا بسارابيا من رومانيا وتحتل النمسا البوسنة والهرسك وفى حالة انهيار الدولة العثمانية تصبح استانبول مدينة حرة ويحتل الاغريق بقية الأجزاء الاغريقية (٤٠) •

ودخلت الصرب الحرب ضد تركيا واثقة من مساعدة روسيا وكان قد تطوع فى الجيش الصربى عدد غير قليل من الضباط الروس وثار الشعور القومى فى البلقان مطالباً روسيا بمساعدة صقالبة البلقان مساعدة فعلية • ودخلت الصرب الحرب رغم تحذير النمسا وفرنسا وبريطانيا • وفشلت فى الحرب فشلاً ذريعاً ، فكان ذلك مدعاة لتدخل روسى فعلاً لمنصرة فكرة الجامعة الصقلية خاصة عندما اصبحت بلغراد نفسها (عاصمة الصرب) فى خطر • ولذا أسرع روسيا باقتراح هدنة وعقد مؤتمر من الدول ولكن الترك العنصريين ابوا حتى تقدم الصرب شروط الصلح التى يرضونها • وكانت روسيا ترغب فى هدنة طويلة تسترد فيها الصرب أنفاسها وتلم قواها بينما الدول الأخرى تريد لها قصيرة ، واختلفت الآراء بين الدول • وكان بسمارك يخشى قيام حرب أوروبية تضطر بلاده للاشتراك فيها ولذا بدأ يهتم بالمسألة الشرقية ، وما يتفرع عنها مسألة الشعوب الاسلامية الخاضعة لتركيا ، مسألة مصر وسورية وتونس وطرابلس (ليبيا) •

ورأى أن توافق بريطانيا على تفوق النفوذ الروسى فى شرق البلقان فى نظير أن تضم بريطانيا مصر بالاتفاق مع فرنسا وظل هذا هو رأى المستشار الألماني من ١٨٧٧-١٨٨١ وكان يعمل على ايجاد جو من التعاون بين الدولتين خارج حدود القارة الأوروبية وعلى حساب الدولة العثمانية • ورأى بسمارك انه اذا تخوفت الحكومة البريطانية

(٤٠) صفوت : مؤتمر برلين ص ١٦ •

من مناوأة فرنسا لهذه السياسة فعلى لندن أن تبحث مع باريس أمر تقسيم الشرق الأدنى الى مناطق نفوذ فتوافق بريطانيا على تفوق النفوذ الفرنسى فى سوريا نظير موافقة فرنسا على تفوق النفوذ البريطانى فى مصر •

لكن دزرائيلى رئيس حكومة المحافظين فى ذلك الوقت كان لا يرى فى احتلال مصر وسيلة ناجحة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، ويرى انه اذا أخذ الروس استانبول فبإمكانهم فى أى وقت الوصول الى سوريا ثم وادى النيل • فالآستانة لا مصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الى الهند (٤١) •

وجرت العمليات الحربية على مسرحين : فى البلقان وفى ما وراء القوقاز وهدفت خطة القيادة الروسية الى عبور نهر الدانوب واجتياز البلقان بهجوم خاطف ثم التوجه نحو العاصمة التركية • وقد أملت القيادة التركية أن تمنع اجتياز القوات الروسية لنهر الدانوب معتمدة على حصونها لكن هذه الحسابات لم تتحقق واجتازت القوات الروسية نهر الدانوب بنجاح فى صيف ١٨٧٧ واحتلت بسرعة عاصمة بلغاريا القديمة مدينة « تيرنوف » وقد استقبل البلغار الروس بحماس كمنقذين وقدّموا لهم المساعدات وتكبدت القوات الروسية خسائر كبيرة فى الحرب أمام الاتراك ولكن الروس استطاعوا فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٧ أن يستولوا على « بليفنا » فى شمال بلغاريا بعد أن استسلمت حاميتها التركية وعددها ٤٠ ألف شخص والتي أثار سقوطها انتعاشا فى حركة الثورة السلافية فدخلت صربيا الحرب من جديد وانهكت قوى الاتراك وتقدمت القوات الروسية وانتصرت على الاتراك فى عدد من المعارك واستولت على مدينة صوفيا •

(٤١) صفوت : نفس المرجع ص ١٦ •

وفى شهر يناير (كانون الثانى) ١٨٧٨ بدأ الهجوم العام للقوات
الروسية حتى أجلى الاتراك عن مدينة «أدرنة» وأصبح الطريق نحو
استانبول مفتوحا . وطلبت تركيا الصلح وكانت العمليات الحربية قد
جرت بنجاح كذلك فى القوقاز حيث سقط بأيدي الروس حصون بايزيد
واردهان وقرص (٤٢) .

لقد أثار انهيار تركيا قلق بريطانيا والنمسا — المجر . فوجهت
بريطانيا اسطولها الى بحر مرمرة وهددت روسيا بقطع العلاقات
الدبلوماسية اذا تجرأت واحتلت القسطنطينية .

ولقد كانت الحكومة البريطانية — والتي تظاهرت بأنها غير راغبة
فى احتلال مصر فى ذلك الوقت — حريصة على ألا تمتد الحرب الى ثارت
فى البلقان الى مصر فإلقد راجت شائعات تقول ان روسيا تنوى ادخال
مصر فى غمرة الحرب ، فهي تنوى محاصرة الشواطئ المصرية باسطولها
وهى تنوى أخذ أرمينية كذلك . ولذا قدم وزير خارجية بريطانيا
« داربى » الى « شوفالوف Shuvalov » السفير الروسى فى لندن
مذكرة تؤكد أن مصالح بريطانيا ستضطرها للدفاع اذا مس خطر
حرية الملاحة فى قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم على مصر .
واستفسرت الحكومة البريطانية من روسيا عما اذا كانت عازمة على
محاصرة مصر أم لا وبينت فى نفس الوقت أن أى عمل حربى يهدد سلامة
مصر أو قناة السويس ستعتبره بريطانيا عملا عدائيا ، ولم يهدأ بال
بريطانيا الا حين علمت أن هذه الشائعات عارية عن الصحة . كما ان
روسيا أثناء الحرب الروسية — التركية أعلنت عن رغبتها فى ارضاء
بريطانيا بانها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة
ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل (٤٣) .

(٤٢) نفس المرجع ص ٢٧ ولزید من التفصيلات يراجع ييفانوف : المرجع
السابق .

(٤٣) ص ٤٠١ وما بعدها .

وقد تمت النمسا — المجر احتجاجا على استمرار العمليات الحربية وبرز أمام الاوساط الحاكمة فى روسيا شبح حرب « كبيرة » مع الدول الأوروبية ، لم تكن مهياة لها • وكان الجيش الروسى قد أصيب بخسائر كبيرة وعانى صعوبات فى التموين • فأوقفت القيادة الروسية قواتها فى بلدة « سان ستيفانو » (بالقرب من استانبول) وفى مارس (آذار) ١٨٧٨ وقعت معاهدة صلح سان ستيفانو • وكانت شروط معاهدة الصلح التى وقعت فى سان ستيفانو والتى فرضتها روسيا على تركيا لمصلحة روسيا والشعوب السلافية فتكونت دولة كبيرة مستقلة هى بلغاريا واعترفت تركيا باستقلال الجبل الاسود وصربيا • وقد توسعت اراضيها بصورة ملحوظة وتم الاعتراف برومانيا كدولة مستقلة ونالت روسيا الجزء الجنوبى من بسارابيا ومنطقة قرص • وأصبح على تركيا ارضاء الرعايا الروس فى الدولة وان تعترف بحرية المضائق وتغلق البحر الاسود فى وقت الحرب أمام أعداء روسيا • وتدفع غرامة حربية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه جزءا منها نقدا ، والآخر عن طريق التخلي عن بعض المناطق والمدن مثل بسارابيا الجنوبية ، واردهان وقارص وباتوم وجزء من أرمينية • تم كل ذلك أثناء المفاوضات بين روسيا وتركيا فى مارس (آذار) ١٨٧٨ •

لكن بريطانيا والنمسا — المجر لم يرضا توطيد روسيا لموقعها فى البلقان وقيام دولة سلافية كبيرة هى بلغاريا • فطلبتا اعادة النظر فى شروط معاهدة سان ستيفانو فى مؤتمر أوروبى وهددتا روسيا بالحرب وامتنعت ألمانيا عن تأييد روسيا فاضطرت الأخيرة للموافقة على اعادة النظر فى المعاهدة واتفق على طلب النمسا عقد مؤتمر فى برلين تعرض عليه المعاهدة • وتدخل بسمارك لانقاذ السلام لأن الحرب كانت ستقع بين بريطانيا وروسيا — ووافق على عقد مؤتمر ومهد الطريق لمفاوضات بين لندن وبترسبرج لتعديل معاهدة سان ستيفانو فاعترفت روسيا بحق النمسا فى احتلال البوسنة والهرسك ، فزال معارضة النمسا ونفذ

رأى بسمارك فى تقسيم البلقان الى منطقتى نفوذ بين روسيا والنمسا^(٤٤) وأما المفاوضات بين بريطانيا وروسيا فقد وضح فيها أن معارضة بريطانيا للمعاهدة كانت تنبع من أمرين : أولهم أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا وثانيهما — انها وضعت تركيا تحت رحمة روسيا ولذا لابد من انقاص حجم بلغاريا ، وتقوية مركز تركيا فى آسيا ، وقد قبلت روسيا بذلك •

وفى هذه الأثناء عقدت بريطانيا معاهدة سرية دفاعية مع تركيا تحتل بموجبها قبرص (١٨٧٨/٥/٢٦)^(٤٥) • وبذا ضمنت بريطانيا سلامة مصالحها الامبراطورية • وكان احتلال قبرص لحفظ التوازن فى أوروبا وفى شرقى البحر المتوسط أمام توسع روسيا فى البلقان والقوقاز وامام رغبة النمسا — المجر فى احتلال البوسنة والهرسك • واتخذ البريطانيون من قبرص قاعدة لهم ضد روسيا ومركزا يقفزون منه الى أجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية (مصر ١٨٨٢) كما كانت اتفاقية قبرص هذه تعنى أن بريطانيا تخلت عن سياستها التقليدية وأصبحت لا تمانع فى تقسيم الامبراطورية العثمانية ولكن بشرط ألا يضر ذلك بمصالحها •

وعقد مؤتمر برلين للدول الكبرى برئاسة بسمارك لاعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو فى الظاهر ولكنه فى الواقع كان لتسجيل الاتفاقيات التى تمت بين روسيا وبريطانيا وبين روسيا والنمسا — المجر • وكان واضحا عزلة روسيا فى المؤتمر فاضطر الوفد الروسى الى تقديم تنازلات كبيرة وبموجب معاهدة برلين ١٨٧٨ قسمت بلغاريا الى ثلاثة أقسام ونالت بلغاريا الشمالية وحدها الاستقلال ، وانخفضت مساحة الأراضى التى نالتها الجبل الاسود وصربيا ، واعطيت البوسنة والهرسك للنمسا — المجر ، وتخلت رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا فى معاهدة باريس ١٨٥٦ • ونصت المعاهدة على صيانة

(٤٤) صفوت : مؤتمر برلين ص ٣٣—٣٤ •

(٤٥) نفس المرجع ص ٤٢—٤٣ •

حرية الملاحة فى الدانو بوهى حرية دولية وتنازل الباب العالى عن
أراضى : اردهان ، وقارص ، وباطوم لروسيا .

بينما استردت تركيا وادى « آلاكرد » ومدينة بايزيد ، وتنازلات
لفارس عن مدينة واقليم « ختر » وتعهد الباب العالى بأن يحقق سريعا
الاصلاحات التى تستلزمها حالة ارمينيا وحمايتها من الشرکس والکرد .
وأعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى ، ولا يجب
أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينية
وتعترف الدولة بحق القناصل فى حماية رعاياهم^(٤٦) .

ويلاحظ فى مواد معاهدة برلين انها حاولت تحقيق وجهة النظر
البريطانية فى المسألة البلغارية فأصبح قسم منها مستقلا وآخر خاضعا
للباب العالى . على أن هذا التقسيم الذى هدفت من ورائه بريطانيا
لاضعاف النفوذ الروسى فى بلغاريا لم يدم طويلا . ففتتد أجزاء بلغاريا
فى أول أزمة بلقانية كبرى تواجهها استانبول بحيث لم يمضى خمسة
وثلاثون عاما الا وقد تكونت دولة بلغاريا الحديثة . ورغم هزيمة
الصرى فقد أكدت المعاهدة استقلالها بل ضمنت لها بعض الأراضى
العثمانية ، وبذا وضع الاساس الذى ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا
الحديثة . كما أكدت استقلال رومانيا والصرى والجبل الاسود . وحاولت
الدول قبل كل شىء التوفيق بين مصالح الدول الكبرى فى البلقان .
فقوى النفوذ الروسى فى شرقى البلقان ونما النفوذ النمساوى —
المجرى فى غربها ، ورضيت بريطانيا حين وضع حد لاطماع روسيا فى
الاشراف على القسطنطينية والمضايق ، ولكن مع هذا فلقد امتد النفوذ
الروسى فى آسيا بعد اخضاع القوقاز كلها وأخذ اردهان وباطوم ،
وأصبحت روسيا متاخمة لأرمينيا العثمانية . وبذا أصبح فى استطاعة
الروس القفز الى آسيا الصغرى نفسها والى شمال الجزيرة (العراق

(٤٦) انظر نص المعاهدة فى Hurewitz, op. cit., pp. 187 — 189.

وسوريا) ولكى تواجه انجلترا الموقف وتعيد التوازن أخذت قبرص فى شرقى المتوسط لصالحها ولوقف النفوذ الروسى من أن يمتد الى الشرق الأدنى • ولتحقيق أطماعها فى أملاك الدولة فى المشرق العربى •

والجدير بالذكر انه فى الوقت الذى اهتمت فيه بريطانيا بتأييد شعوب الولايات المسيحية لم تهتم بمصير رعايا الدولة المسلمين •

وكان أثر معاهدة برلين على روسيا انها وجهت اهتمامها للتوسع فى شمال آسيا ووسطها وشرقها حيث أخذت تصطدم بالشعوب الاسيوية الشرقية وبالدولة اليابانية التى ظهرت على مسرح السياسة الاسيوية والعالمية كما أخذت تصطدم بالمصالح الأوروبية والبريطانية والفرنسية فى الصين •

وحافظت المعاهدة على السلام الأوروبى وعملت ألمانيا — حتى يظل لها التفوق فى أوروبا على توجيه أنظار الدول الكبرى الى اتباع سياسة استعمارية فى افريقيا وآسيا على حساب شعوب افريقيا والشعوب العربية والاسلامية وشعوب الهند والشرق الاقصى • فبعد ثلاث سنوات احتلت فرنسا تونس وبعدها بعام احتلت بريطانيا مصر •

وكان من أثار المؤتمر أيضا زيادة اهتمام العثمانيين بأحكام سيطرتهم على الاقطار العربية والاهتمام بفكرة الجامعة الاسلامية (عبد الحميد الثانى) وبالتقارب مع ألمانيا بعد أن تخلت بريطانيا عن سياستها التقليدية للمحافظة على الدولة وعدم الموافقة على تقسيمها بأخذها قبرص وتركها فرنسا تتحرك نحو تونس ثم تحرك بريطانيا نفسها نحو مصر • فبدأ النفوذ الألمانى يلعب دوره المعروف فى الدولة العثمانية وفى ولاياتها العربية بالذات •

وكان لجوء عبد الحميد للسياسة الاسلامية بهدف استخدام الدين لمقاومة معارضيه فى الداخل ومواجهة أعدائه فى الخارج ورأى فى هذه

السياسة أداة يضمن بها التفاف الوطن العربى بل والاسلامى حول الخلافة العثمانية وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الأقاليم العربية فى وقت فقدت فيه الدولة اقليمها فى البلقان الواحد تلو الآخر وقصد ضمن ما قصد خارجيا أن يجمع حوله الشعوب الاسلامية الخاضعة للدول الأوروبية ومنها التتر الخاضعين لروسيا^(٤٧) .

بعد مؤتمر برلين أصبح واضحا أن التدخل الأوروبى فى الامبراطورية العثمانية فى تزايد مستمر وسيكون نصيب البلاد العربية فى هذا التدخل الاستعمارى كبيرا • ولم تقف روسيا القيصرية بعيدا عن هذا النشاط وان كانت أوضاعها الاقتصادية قد ساءت كثيرا بسبب حربها مع الدولة العثمانية فى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ •

وقد كان لهذا أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم فى الثورة التى قامت فيها عام ١٩٠٥ بالإضافة الى الاتجاه الاسيوى الواضح لروسيا بعد مؤتمر برلين •

وبانتهاء مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ كانت بريطانيا قد وضعت يدها على قبرص باتفاق خاص مع تركيا وقد اعطاها هذا مركزا متميزا فى شرقى البحر المتوسط وأصبحت أهدافه فى القفز على مصر أكثر سهولة •

وكانت مصر تعيش أزمة اقتصادية وسياسية وعزل اسماعيل بعد تردى الأوضاع المالية للبلاد نتيجة لتراكم الديون الأجنبية على مصر والتدخل الأجنبى فى شئونها (الانجلو — فرنسى بالدرجة الأولى) •

وعندما قامت بريطانيا وفرنسا فى ١٩ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ بتقديم انذار نهائى الى اسماعيل بالانتازل عن الخديوية وهددته فى حالة عدم الاذعان بالالتجاء الى السلطان لخلعه حظى الانذار بمساندة الدول

(٤٧) صفوت : مؤتمر برلين ص ٤٦ — ٥٠ نص المعاهدة .

الأخرى ومنها روسيا حيث قدم تناصل روسيا وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا « نصيحة » مماثلة لاسماعيل •

كما شاركت روسيا بعد ذلك فى مؤتمر القسطنطينية لعام ١٨٨٢ عندما كانت مصر فى صيف ذلك العام معرضة لخطر تدخل انجليزى حقيقى ورفضت الحكومة الفرنسية فى يناير (كانون الثانى) ١٨٨٢ برئاسة « دى فريسييه » خطط التدخل المشترك الأنجلو — فرنسى وذلك ما كانت تنتظره الدبلوماسية البريطانية • ولم يكن بمقدور فرنسا — حيال الاتحاد الثلاثى أن تمضى فى تصعيد الأزمة مع بريطانيا بسبب مصر ، بينما لم تكن راغبة فى ترك بريطانيا تتفرد بالتدخل • ورأت الدوائر الفرنسية ان المخرج من هذا المأزق هو الاحتفاظ باستقلال مصر • ونادت بعقد مؤتمر دولى لتسوية المشاكل الجادة وعرقلة التدخل البريطانى •

وسانددت الدول ومنها روسيا مبادرة فرنسا وافتتح المؤتمر فى العاصمة التركية فى ٢٣ يونيو (حزيران) ١٨٨٢ وأسهمت فيه روسيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا • بينما رفضت تركيا الاشتراك فيها لأنها اعتبرته خرقا لحقوق سيادتها وتعهدت الدول المؤتمرة « بعدم السعى فى مصر الى اقتناء الأراضى أيا كان نوعها ولا الحصول على امتيازات ذات ميزات استثنائية وامتيازات تجارية لرعاياها » كما اتخذ قرار بصدد تحاشى أية اجراءات منفردة فى مصر طوال انعقاد المؤتمر • ولكن بريطانيا تحفظت بالتالى : « اذا لم يكن هناك أحوال طوارئ وأبطل هذا التحفظ مفعول القرارات التى أتخذها المؤتمر كما أقدمت بريطانيا لايجاد أحوال طوارئ لتضع الدول أمام الأمر الواقع » •

وأدى نشوب الأعمال العسكرية العدوانية ضد مصر من جانب بريطانيا الى استياء الدول فقامت روسيا وسحبت مندوبيها من مؤتمر القسطنطينية •

وقد قررت فض المؤتمر فى ١٤ أغسطس (آب) ١٨٨٢ بعد أن أصبح واضحا أنه عاجز عن منع التدخل البريطانى المنفرد فى مصر (٤٨) •

وشاركت روسيا فرنسا فى مساندة السلطان العثمانى وطلبنا بجلاء القوات البريطانية عن مصر وقد شجع ذلك السلطان ليرفض الاتفاق البريطانى — التركى لعام ١٨٨٧ • ولكن لم يؤد هذا الى نتيجة واستمرت القوات البريطانية تحتل مصر مع اعلان بريطانيا ان مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية !

كما شاركت روسيا أيضا فى اتفاقية القسطنطينية الخاصة بقناة السويس لعام ١٨٨٨ والموقعة فى ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) من ممثلى روسيا وألمانيا ، وفرنسا ، والنمسا — المجر وإيطاليا وأسبانيا ، وتركيا وتحفظات بريطانيا وماطلت حتى تم توقيعه عليها فى عام ١٩٠٤ بعد أن تفاهمت مع فرنسا فيما عرف بالوفاق الودى •

(٥)

روسيا والخليج العربى

شغلت فكرة الزحف الروسى على الخليج العربى وتمركز روسيا فى موانئ على هذا الخليج اذهان كبار الساسة والعسكريين البريطانيين منذ قيام نابليون للتحالف مع قيصر روسيا ضد بريطانيا لتنفيذ خطته فى احتلال الهند • فلقد اعتقد نابليون بأن روسيا تستطيع التعاون مع جيوش فرنسا البرية للسيطرة على ايران وافغانستان ودخول الهند من حدودها الشمالية الغربية فى نفس الوقت الذى يحتل فيه الاسطول

(48) Antonius, George : The Arab Awakening- The Story of the Arab National Movment (London H. Hamilton) 1938 p. 75.
Hurewitz, op. cit., pp. 219 — 249.

الفرنسى ميناء بومباى والموانى الهندية الأخرى بعد أن يتمركز فى الخليج العربى • ومنذ قيام نابليون بالاتصال مع الروس ومع سلطان مسقط ، وتيبو صاحب أمير ميسور — آخر أمراء المسلمين والذي كان يخوض صراعا ضد البريطانيين فى الهند — حتى جلاء بريطانيا عن الهند فى عام ١٩٤٧ كانت السياسة البريطانية مشغولة بالتفكير فى احتمال قيام روسيا القيصرية (ثم الاتحاد السوفيتى) بغزو الخليج العربى • وبذلك يخرج الموقف فى الهند من يد بريطانيا وتصبح روسيا سيدة الموقف هناك •

وبعد ظهور الحركة القومية فى الهند أخذ الاستعماريون البريطانيون يهددون السكان فى شبه القارة الهندية بشبح الخطر الروسى ويؤكدون ان من أهداف بقاء بريطانيا فى الهند رغبتها فى حراسة الهند من روسيا !

وهو أمر غريب بطبيعة الحال أن تهدد دولة مستعمرة للهند فعلا ، سكانها بدولة غير مستعمرة لهم ولم يروا لها جنودا على أرضهم من قبل !

أما بالنسبة لوجهة النظر الروسية فقد كانت فكرة الروس الاتصال بالخليج العربى فكرة واقعية هدف اليها التحالف الروسى — الفرنسى غير أن الأحداث السياسية والعسكرية التى أعقبت الحرب مع اليابان قضت على آمال روسيا فى الوصول الى مياه الخليج العربى •

وقد بحثت مسائل الهجوم والدفاع على الخليج العربى بتقارير السياسيين والعسكريين لمختلف الدول ومن الذين ناقشوا أهمية الخليج العربى البحرية والعسكرية من البريطانيين « الاميرال لو Low » فى كتابه « تاريخ البحرية الهندية » وكذلك العسكرى « ماك كريجوت Mac Gregor » الذى وضع دراسة استراتيجية للدفاع عن الهند فى كتاب أصدره عام ١٨٨٥ • أما فى الولايات المتحدة الامريكية فقد تطرق

« الاميرال ماهان » الى موضوع الخليج العربى فى الصراع البريطانى — الروسى فى مقالته عن الخليج العربى والعلاقات الدولية التى نشرتها مجلة National Review البريطانية عام ١٩٠٢ ثم أصدر كتابه عن « مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية » عام ١٩٠٣ محذرا بريطانيا من الخطر الروسى على الخليج العربى وايران وقال بأن الخطر الروسى ليس عسكريا فحسب بل يتمثل فى استعمارها للاقتصادى لمنطقة الشرق الأدنى ومشاريعها لربط البحر المتوسط بالخليج العربى بواسطة سكة حديد • وقال بأن روسيا ستتوسع فى بلاد العرب وستهدد الاحتلال البريطانى لمصر اذا استولت على الخليج ورأى ماهان أن وجود دول مستقلة قوية فى افغانستان وايران وتركيا تحترم الدول الأوروبية حيادها أمر كفيل بحل مشكلة القلق الذى يسيطر على أفكار السياسة البريطانية عن مستقبل النفوذ البريطانى فى الهند والخليج العربى (٤٩) •

ووضح كيزرن السياسة التى يجب أن تتبعها بريطانيا فى ايران والخليج العربى وركز على تأكيد التعاون بين حكومة الهند وحكومة لندن فى تحليل مطول فى سبتمبر (ايلول) عام ١٨٩٩ • وتحدث طويلا عن أيدى روسيا الخفية والقوية فى شمال ايران وحث بريطانيا على أن تتحرك بقوة أكبر قبل أن تصبح روسيا أكبر قوة فى وسط آسيا وتقترب من مناطق عديدة وهامة قرب حدود الهند من خلال نفوذها فى ايران وافغانستان خاصة وان بإمكان بريطانيا التأثير فى سياسة تركيا وافغانستان الخارجية • كما حذر كيزرن من امكانية روسيا لنحويل بحر قزوين الى بحيرة روسية •

ورأى ان بريطانيا عليها أن تقابل ذلك النشاط الروسى بجعل جنوب ووسط ايران منطقة نفوذ بريطانية • وأن سيستان ، وبلوخستان لهما أهمية خاصة بالنسبة للحفاظ على المصالح البريطانية فى الخليج العربى •

(٤٩) لوتسكى : المرجع السابق : ص ٢٦٧-٢٧١ •

وفى استعراضه للوضع فى الخليج العربى تحدث كيرزن عن تبعيات مناطق مختلفة مؤكدا على أهمية استمرار يد بلاده قوية فى المشيخات العربية التى تم توقيع اتفاقيات بينها وبين بريطانيا لمواجهة نشاط روسيا نحو جنوب ايران (خاصة سيستان) ومن ثم نحو الخليج العربى •

ولم يحاول كيرزن أن يفاوض مع روسيا مطلقا فيما يتعلق بشئون الخليج ، وقال فى مذكرة سرية أرسلها الى وزير الهند بأنه لا يعتقد ان بالامكان تقسيم الخليج العربى الى منطقتى نفوذ روسية فى الشرق وبريطانية فى الغرب ولا يمكن التنازل عن بندر عباس أو المحمرة لروسيا وليس باستطاعة حكومة الهند التنازل عن مشروع نهر الكرون (٥) •

وقد درست جميع الاحتمالات فى حالة حرب مع روسيا فى منطقة الشرق الأدنى وتأثيرها على منطقة الخليج العربى بالذات • وقد قامت وزارة الحرب البريطانية بدراسة امكانية ارسال قوات عسكرية الى شمال الخليج العربى ثم عبر دجلة والفرات فى حالة حرب مع روسيا وذلك ضد أى تقدم روسى فى شرق الاناضول أو فى شمال ايران •

وكانت روسيا لو استطاعت السيطرة على الممرات المؤدية الى جبال كردستان يمكنها أن تستولى على الموصل واذا تم لها ذلك أصبحت سيدة الموقف فى الجزيرة وأصبح سهل الرافدين مفتوحا أمام جيوشها وهو ما يؤدى الى الوصول الى الخليج العربى •

ومن ناحية أخرى كانت روسيا مهتمة بباطوم على اعتبار انها الميناء الوحيد فى القسم الجنوبى الشرقى من البحر الأسود والميناء الطبيعى لمقاطع روسيا فى القوقاز ونهاية سكة حديد أرمينيا التى توصل

(٥.) محمود على الداود (الدكتور) : الخليج العربى والعلاقات الدولية ج ١ (معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة) ص ١٥١ - ١٥٢ •

البحر الاسود ببحر قزوين • وكانت الدوائر العسكرية الروسية تعتقد أن احتلال باطوم معناه وقوع استانبول الواقعة على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب في يدها وبذلك تصبح الاناضول ، معقل آسيا التركية ، والتي تضم منابع دجلة والفرات ، منطقة هجوم على سهول العراق المؤدية الى الخليج العربى •

وبعد أن يئس الروس من التغلغل فى الأناضول اتجهوا الى افغانستان وايران •

وقد ذكرت وثائق وزارة الحربية البريطانية للفترة من ١٨٩٠ — ١٩١٤ بأنه اذا نشبت حرب مع روسيا فعلى الاسطول البريطانى فى المحيط الهندى أن يتوجه الى بندر عباس وبوشهر وينزل قوات عسكرية لاحتلال ايران عن طريق الاستيلاء على المحمرة وعربستان أولا لاهميتها الاقتصادية ثم احتلال كرمشاه لوقوعها على طريق العراق • أما فى حالة الهجوم الروسى فتعمل حكومة الهند على تزويد ايران فوراً بالاسلحة والضباط والأموال لعرقلة التقدم الروسى مدة تكفى لوصول امدادات جديدة الى الأسطول البريطانى فى الخليج العربى ورأت الدوائر البريطانية انه بالامكان الاستفادة من شجاعة عرب المحمرة وعربستان وكذلك الاستفادة من سهول الكارون الخصبة للمجهود الحربى^(٥١) •

ومن ناحية أخرى كان بعض رجال الاستراتيجية الروسية يؤمنون بأن مصلحة روسيا مرتبطة بنقل الحرب مع بريطانيا الى الخليج العربى حيث تستطيع القوات الروسية أن تحتل موقعا مهما بالنسبة لطرق المواصلات البريطانية عبر المحيط الهندى • وكان هؤلاء يعتقدون بأن مصلحة روسيا البحرية فى المحيط الهادى وبحر البلطيق تقتضى التمرکز فى الخليج •

(٥١) نص التقرير فى :

Hurewitz, Op. cit., P. 219

وكان احتمال قيام روسيا باستعمال ميناء مسقط للترود منه بالفحم الحجري قد أقلق بريطانيا • وبالنسبة الى الخليج العربى بالذات فقد كانت بريطانيا تخشى أن تقوم روسيا فى حالة امتلاكها مراكز ذات ميزات استراتيجية لأغراض جعلها قواعد للفحم البحرى بوضع ضغطها السياسى على شيوخ الخليج العربى ، واقناعهم بالتوقيع على معاهدات سياسية تعطى معنى الحماية • وفعلا اتصل الروس بالشيخ مبارك شيخ الكويت ، كما اتصلوا بعبد العزيز آل سعود ، وذلك خلال سنة ١٩٠٢ وحاولوا اقناعهم بأهمية التعاون مع روسيا وفرنسا • ولكن الأميران العربيان رفضا الدخول فى أية علاقات مع حكومة القيصر •

وكانت سياسة القيصرية الروسية فى تركيا وايران وافغانستان والصين تهدف الى الاحتلال والى ضم المناطق المحتلة الى روسيا لتكون تابعة لها كما حدث بالنسبة لتركستان وكانت هذه السياسة تعتمد كذلك على طرق مواصلات واسعة تربط هذه الأجزاء بعضها ببعض تحت اشراف روسيا المباشر • وكان البريطانيون يعترفون بمقدرة روسيا على تنفيذ مشاريع سكك الحديد عبر ايران الى الخليج العربى • ولكنهم كانوا مطمئنين الى الأفضلية البحرية التى تملكها بريطانيا فى الخليج والتى تمكنها من فرض الشروط على حكومة الشام ومن الدفاع عن الوضع الدولى القائم فى الخليج ضد أى اطماع روسية أو فرنسية أو ألمانية (٥٢) •

واتهمت روسيا بريطانيا بخرق اتفاقية برلين لعام ١٨٧٨ عندما عقدت اتفاقا سريا مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ الذى كان تحت ظل السيادة التركية •

وفى ١٢ مارس (اذار) زار الطراد الروسى « جلياك Gilayak » الخليج العربى وقد صرح قائده بأنه لاينوى احتلال أى ميناء فى الخليج

(٥٢) محمود على الداود : المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٦ •

وأن زيارته لبندر عباس لا علاقة لها بالحصول على محطة للفحم
الحجرى • وكان القنصل الروسى فى بغداد على ظهر الطراد فى رحلته
فى الخليج الذى طالب من الكونت « دى وبث » فتح خط بحرى
للبواخر بين الموانئ الروسية والخليج العربى وتأسيس بنك روسى
فى احدى موانئ الخليج واقامة محطة فحم فى بوشهر وابقاء طراد
روسى وبصورة دائمة فى مياه الخليج العربى على أن يكون بندر عباس
مقرا له • وفى ٢١ مارس (اذار) ١٩٠١ زار الامير الروسى « دايبجه
Dabiji » القنصل الروسى العام فى اصفهان ميناء بوشهر ،
 واجتمع مع العقيد كامبل المقيم البريطانى هناك وأخبره بتوقيع وصول
الباحرة الروسية « كورنيلوف Korniloff » من أوديسا بعد زيارتها
لمسقط وجسك وبندر عباس وطنجة ، وقد زار قائدها سلطان مسقط
برفقة القنصل الفرنسى فى المدينة ••• وقد عارض اللورد هاملتون
فكرة اعطاء بندر عباس للروس بشدة وصرح بأنه على استعداد لاعطائهم
ميناء أقل أهمية خشية وقوع حرب عامة بين الطرفين •

وقد كتبت احدى الصحف الروسية «st. Petersburg Zietung»
بتاريخ ١٨ ابريل (نيسان) عام ١٩٠٠ مقالة عن بندر عباس قالت فيها :
ان حكومة القيصر على استعداد للعمل على مسالة الانجليز فى الخليج
شرط أن يترك الانجليز ادعاءاتهم الخاصة بأن حدود الهند تنتهى فى
العراق والكويت وقالت الصحيفة بأن فى آسيا متسعا للاستعماريين
الروس والانجليز «(٥٣)» •

ومما تجدر الاشارة اليه أن روسيا كانت قد دخلت فى مجال
النشاط الذى قام حول اقامة سكك حديدية فى الأراضى العثمانية فقد
كان هناك عدد من المصالح المالية الروسية التى يرأسها «الكونت كابست»
عم سفير القيصر الروسى فى فينا ، قد أخذت تدرس امكانية تحقيق
مشروع يقضى بمد سكة حديدية من طرابلس على البحر المتوسط الى

(٥٣) نفس المرجع ص ١٦١-١٦٣ •

الكويت على الخليج العربى عبر الصحراء على أن يربط بالعراق بواسطة طريق فرعى يمتد نحو كربلاء •• غير أن مشروعاً شبه خيالى كهذا المشروع بمد خط سكة حديدية عبر الصحراء الشاسعة كان مصيره ألا يرى النور خصوصاً وأن روسيا لم يكن لديها الوسائل المالية أو الفنية التى تمكنها من انجاز مثل هذا المشروع (٥٤) •

وعندما ظهر مشروع سكة حديد بغداد الألمانى بدأت غيوم المعارضة الروسية للمشروع تتجمع فى الأفق كرد فعل على زيادة النفوذ الألمانى فى الامبراطورية العثمانية ، وفى ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٦ اتخذ مجلس الوزراء الروسى قراراً بضم المضائق الى روسيا فى أقرب فرصة سانحة وفى ٩ كانون الأول وقع قيصر روسيا على القرار المذكور وكان القرار جريئاً وصريحاً • وبالرغم من الاعلان عن بطلان انقرار بعد فترة من الزمن من اصداره ، فان محتوياته كانت لها أهميتها الواضحة ، اذ جاءت تلك المحتويات معبرة عن الرغبة والخطط الحقيقية لروسيا فى تلك المنطقة ولم يكن مستغرباً أن تظهر روسيا معارضتها للخطط والمشاريع الألمانية فى الامبراطورية العثمانية ، فبعد الاعلان عن امتياز بناء ميناء حيدر باشا أبلغ السفير الروسى فى المانيا وزير خارجيتها بأن امتياز حيدر باشا من شأنه اطلاق الحكومة الروسية لأنها تعتبر الميناء أمراً ضرورياً بالنسبة لها •

ورد « الهرفون بيلو » وزير الخارجية الألمانى بأن ألمانيا تتبع فى تركيا سياسة اقتصادية بحثة وليس فى نيتها الوقوف أمام روسيا هناك • وفى نفس الوقت أبلغ سفير روسيا فى استانبول السفير الألمانى هناك ان هناك احتمالات فى أن تؤدى زيادة المصالح التجارية الألمانية فى تركيا الى اثاره المصالح السياسية الروسية الأمر الذى يؤدى الى صدام بين الدولتين •

(٥٤) نفس المرجع ص ١٧٣ •

ويبدو ان روسيا كانت فى ذلك الوقت تسعى للتفاهم مع ألمانيا حول آسيا الصغرى بل ومن المحتمل انها كانت تتوقع الحصول على تأييد ألمانيا للاطماع الروسية فى شمال وشرق تركيا مقابل اعطاء تأييدها للسياسة الألمانية الخاصة بسكة حديد بغداد وقد شعر الدبلوماسيون الألمان بأن فى ذلك الأمر فرصة قوية لعزل فرنسا (٥٥) •

ويلاحظ أن الروس كانوا قد عارضوا مشاريع الألمان لربط الامبراطورية العثمانية وخاصة فى آسيا الصغرى بسكة حديد — لعوامل استراتيجية وليس لعوامل اقتصادية منذ مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر • وبدأ الروس بحملة قوية ضد العلاقات الألمانية التركية وخاصة بعد أن فشلت الحكومة الروسية فى اقناع ألمانيا بوجوب التفاهم مع فرنسا حول مشاريع السكك الحديدية واتهمتها باستعمار العراق وسوريا ولكن الألمان لم يهتموا بالمعارضة الروسية وذلك لأن العلاقات الدولية كانت متأزمة بين بريطانيا من جهة وبين فرنسا وروسيا من جهة أخرى • وكانت الاتفاقية البريطانية السرية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ موجهة ضد الخطر الروسى • وان أصبحت بعد ذلك موضوعا مهما فى العلاقات الألمانية البريطانية فى المنطقة • وبعد ظهور المشروع الألمانى الخاص بسكة حديد بغداد ازدادت اهتمامات الروس بالخليج العربى وطرحت مشاريع عديدة على بساط البحث فى الصحافة الروسية متحذثة عن أهمية حصول روسيا على ميناء على الخليج وكانت الاشارة الى أحد مينائين هما بندر عباس أو شاهبور Chahbar ولكن بريطانيا كانت مهتمة بهما كما أن الميناء الثانى ما كن يحقق الاهداف الروسية •

وكان أمام روسيا امكانية اختيار ميناء على الخليج دون أن يكون مرتبطا بخط حديدى بالداخل وهو ما رأته الدوائر الروسية غير مفيد

(٥٥) لؤى بحرى (الدكتور) : سكة حديد بغداد (شركة الطبع والنشر الاهلية — بغداد ١٩٦٧) ص ١٨ — ١٩ .

ذلك أن البحرية الروسية — كانت راغبة في الحصول على ميناء بندر عباس ولكن البريطانيين كانوا يرون أن هذا سيرتبط بولاية سيستان مفتاح شمال الخليج^(٥٦) • وهو ما يرفضوه •

ومع السنوات الأولى من القرن العشرين كانت الدوائر البريطانية ترى إمكانية الاتفاق على مناطق النفوذ في إيران مع روسيا وكان كتشنر القائد الأعلى للقوات المسلحة في الهند يحذر (١٩٠٦) من السماح للروس بنشاط في البحر العربي • أو اعطائهم ميناء في شمال الخليج ، وإن الأفضل تقسيم فارس بحيث تبقى روسيا بعيدة عن الخليج ، ورأى نيكولسن القائد العام للمخابرات العسكرية البريطانية أن يؤخذ بعين الاعتبار في الاتفاقيات مع روسيا حول إيران بأن تبقى روسيا على مسافة كافية من الحدود البريطانية وفيما يخص الخليج يجب التأكيد على تفوق النفوذ البريطاني دائماً عليه^(٥٧) • وأصبحنا نرى تزايداً في المعارضة الروسية والبريطانية لسكة حديد بغداد بعد الاتفاق الذي تم بين روسيا وبريطانيا حول تقسيم إيران سنة ١٩٠٧ وأصبح هذا الموضوع عاملاً مهماً في ابعاد تصاعد الخلاف بين ألمانيا وبين التحالف الروسي — الفرنسي — البريطاني • وكانت روسيا باتفاقها مع بريطانيا قد اعترفت بمنطقة الخليج العربي كمطقة نفوذ بريطانية دون منازع وبأفضلية بريطانيا في جنوب إيران وعربستان في حين أصبح شمال إيران منطقة نفوذ روسية^(٥٨) •

لكن روسيا ما لبثت أن أوقفت معارضتها لمشروع سكة حديد بغداد بعد عقد الاجتماع بين قيصر روسيا وقيصر ألمانيا ، أثناء زيارة

(٥٦) نفس المرجع ص ٤٢—٤٣ •

(57) Briton Cooper : Britain and the Persian Gulf 1894 — 1914 (Untvof California Press Berkelay and Last Angeles 1967) p. 119.

(58) Ibid, pp. 307 — 309, 362.

الأول للثاني في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٠ حيث جرت مباحثات في بوتسدام أدت الى عقد اتفاقية بوتسدام بشأن سكة حديد بغداد والمصالح الروسية في ايران في ١٩ أغسطس (آب) ١٩١١ حيث تعهدت روسيا بالألا تضع العراقيل أمام بناء هذا الخط الحديدي في حين تعهدت ألمانيا بالابتعاد بالخط عن الأناضول في سوريا والعراق .
واعترفت بادعاءات روسيا في ايران (٥٩) .

وباتفاق ١٩٠٧ بين الروس والبريطانيين واتفاق بوتسدام ١٩١١ بين الروس والألمان تكون روسيا قد قنعت بتركيز نفوذها في شمال ايران على أن تباعد ألمانيا بسكة حديد بغداد عن المناطق القريبة من الحدود الروسية مع تركيا في الأناضول .

ومن الواضح أن اتفاق ١٩٠٧ قد ترك النفوذ في الخليج العربي بالكامل لبريطانيا وتراجعت روسيا عن تحركاتها السابقة نحو الخليج العربي .

(٦)

روسيا واقتسام الأملاك العثمانية

قبيل الحرب الأولى وابانها

ومما تجدر الإشارة اليه انه في الربع الأخير من القرن ١٩ كانت مناطق نفوذ ثلاث من الدول الأوروبية الكبرى قد ارتسمت بخطوط واضحة فأصبحت الولايات الشرقية من الأناضول منطقة نفوذ روسية ، وسوريا منطقة نفوذ فرنسية ، العراق منطقة نفوذ بريطانية ، وفيما يتعلق بروسيا فقد كانت تهتم بالولايات الشرقية اهتماما بالغا ، لأنها كانت متأخمة لبلادها ومتصلة جغرافيا بها بشكل مباشر ، فضلا عن أنه كان بين سكان تلك الولايات جماعات كبيرة من الأرمن . والواقع

(٥٩) انظر نص الاتفاق : Hurewitz, op. cit., pp. 265 — 267.

أن روسيا لم تكن قد أقامت هناك مؤسسات اقتصادية أو ثقافية تكسب لها النفوذ المادى والمعنوى ، الا أنها عملت على منع الدول الأخرى من اكتساب نفوذ لها فيها • وحصلت الحكومة الروسية من الحكومة العثمانية على وعد خطى يضمن لروسيا ذلك بصورة صريحة • وجاء ذلك فى كتاب موجه من وزارة الخارجية فى استانبول الى السفارة الروسية بتاريخ ١٩٠٠/٣/٣١ قالت فيه : « نتعهد الحكومة العثمانية أن لا تمنح امتيازات لأية دولة أوروبية لإنشاء سكك حديدية فى جهات البحر الاسود — فى المنطقة التى تقع فى شمال وشرق الخط الذى يمتد بين اركلى — انقره — قيصريه — سيولس — خريوط — ودان • فاما أن تنشئ السكك المذكورة هى بنفسها واما أن تمنح امتيازها الى شركات روسية » • ولما كانت الحكومة العثمانية لا تملك الامكانيات الفنية أو المالية اللازمة لهذه الأعمال فى تلك المناطق الوعرة فأن التعهد فى حقيقته يسلم بأن تكون تلك السكك فى هذه المناطق فى أيدي شركات روسية • وهو ما يعنى أن الولايات الشرقية من الأناضول أصبحت « منطقة مقفلة » دون سائر الدول الأوروبية وتقع فى نفوذ روسيا وحدها (٦٠) •

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لروسيا عند هذا الحد فمئذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأصاب روسيا تحرك فى البلقان •

وبعد احتلال ايطاليا لطرابلس واضطرار الدولة العثمانية للاعتراف بالتنازل عن طرابلس وبرقة عام ١٩١٢ زادت أطماع الدول الأوروبية الأخرى • وبالنسبة لروسيا عرض سفيرها فى الآستانة مشروع تحالف تركى — روسى ، تتعهد بموجبه روسيا بالعمل على التكامل السياسى للدولة العثمانية بينما تقوم تركيا من جانبها بالسماح للسفن الحربية الروسية بالمرور فى المضائق • ولكن بريطانيا وألمانيا عرضت سرا هذا المشروع وحرضت السلطان على رفضه فاستجاب السلطان لتحريضهما •

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت سياسة روسيا تتجه أكثر فأكثر الى تكوين حلف بلقانى بزعامة الصرب ، تكون مهمته الأولى العمل على تصفية الممتلكات التركية الباقية فى البلقان ويكون لروسيا النفوذ الأول على هذا الحلف .

وفى مارس (اذار) ١٩١٢ وقعت الصرب ببولغاريا معاهدة سرية للتحالف وفى نفس الوقت دخلت اليونان والجبل الأسود هذه المحالفة ، وبذلك تألف الحلف البلقانى ونشبت الحرب فى البلقان حيث انتصر فيها الحلف على الأتراك . وهنا تدخلت روسيا والنمسا — المجر ، فروسيا من جانبها كانت تخشى قيام النمسا بالتوسع فى البلقان لتوازن الانتصارات المتواصلة لحلف البلقان ولا سيما انتصارات الصرب . هذا بينما كانت النمسا تخشى من تحقيق مشروع دولة الصرب الكبرى . وحتى تمنع النمسا وإيطاليا خروج دولة الصرب الى الادرياتيک ، أعلنت اعترافها باستقلال البانيا وخوفا من أن تتطور الحرب البلقانية الى حرب عالمية بتدخل الدول الكبرى اقترحت بريطانيا عقد مؤتمر فى لندن من سفراء النمسا — المجر ، ألمانيا ، فرنسا ، وإيطاليا وبريطانيا غير أن أعمال المؤتمر توقفت فى يناير (كانون الثانى) ١٩١٣ عندما استولى أنور بك على السلطة بانقلاب فى تركيا واستأنف الحرب فى البلقان غير أن الهزيمة لحقت بتركيا من جديد وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة لندن فى ٣٠ مايو (ايار) ١٩١٣ وفقدت تركيا بموجبها كافة ممتلكاتها باستثناء شريط ضيق يمتد من العاصمة الى خط يسير من اينوس على بحر ايجة الى ميديا على البحر الأسود .

ولكن هذه العاصمة لم توضع موضع التنفيذ بسبب اختلاف دول البلقان على الغنائم وقامت الحرب البلقانية الثانية فى يونيو (حزيران) ١٩١٤ وانتهى الأمر بهزيمة بلغاريا واعلانها الهدنة فى ٣١ يوليو (تموز) ثم وقعت معاهدة بوخارست .

على أية حال فقد تركت حروب البلقان هذه الدولة العثمانية وهى دولة غير أوروبية وأدى ذلك الى نتائج بعيدة المدى أهمها :

١ — تركيز الأتراك على ممتلكاتهم فى الولايات العربية بالذات •

٢ — ظهور حركات الإصلاح داخل الدولة العثمانية للمحافظة على ما تبقى من الدولة كدولة اسلامية شرقية مثل الجامعة الاسلامية وحركة الأتراك الأحرار •

٣ — ظهور الجمعيات العربية التى بدأت تطالب بحقوق العرب القومية فى الولايات العربية^(٦١) • بعد أن أخذت سياسة التتريك ابعادا خطيرة •

ولقد أدى انهزام الجيوش العثمانية فى البلقان الى اسراع سياسة أوروبا فى حل الأمور الخاصة بالدولة لأنه أصبح واضحا أن عمرها لن يطول كثيرا لأن الحرب الطرابلسية والبلقانية انتهكت العثمانيين الى درجة كبيرة •

واذا كانت الاتفاقيات التى عقدت فى هذه الفترة بين الدولة العثمانية وروسيا لا تعنى البلاد العربية بشكل مباشر الا أن ما حدث فى البلقان ضد الدولة • وكانت روسيا صاحبة اليد الطولى فيه كان من أهم العوامل التى جعلت الدولة تقبل الاتفاق مع الدول الأوروبية الأخرى وجل هذه الاتفاقيات كانت على حساب الولايات العربية وان كان هذا لا ينفى المسؤولية العثمانية لأن الدولة استسلمت لاطماع الدول الأوروبية بشكل واضح •

وتجدر الاشارة الى أن الاتفاقيات التى عقدتها الدولة العثمانية

(٦١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢ (بيروت)

والدول الأوروبية فى هذه الفترة كانت سرية وظلت مكتومة على الرأى العام مدة طويلة والاتراك أنفسهم لم يذيعوها الا سنة ١٩٥١ حيث خصص « يوسف حكمت بابور » أحد مجلدات كتابه عن « تاريخ الانقلاب التركى » لبحث المفاوضات والاتفاقيات مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية التركية (٦٢) .

وتمت هذه الاتفاقيات بين الحكومة التركية وبين بريطانيا وفرنسا
وألمانيا :

فتم التوقيع على اتفاقيات مع بريطانيا بين يوليو (تموز) ١٩١٣ ، ومارس (اذار) عام ١٩١٤ تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى : قطر ، البحرين ، واعترفت باتفاقيات بريطانيا السابقة مع شيخ الكويت ، وتم اتفاق بخصوص شط العرب وأعطيت بريطانيا امتيازات خاصة ، وآخر بخصوص الملاحة النهرية فى دجلة والفرات تمنح بموجبه الحكومة العثمانية امتيازات لشخص بريطانى ترشحه الحكومة البريطانية لتأسيس شركة تتولى تسيير السفن فى نهر دجلة من القورنة حتى الموصل على الأقل . وفى نهر الفرات من القورنة حتى مسكنة . وتم منح الامتياز الى اللورد « اينجة كوت » البريطانى . كما وقعت اتفاقيات مع بريطانيا حول المحميات وحضرموت فى الجنوب العربى تم فيها تحديد حدود بين ولاية اليمن ، وبين عدن والمحميات التسع وتخلت بموجبها الدولة عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى حضرموت .

كما جرت مفاوضات بين الدولة وفرنسا وبين فرنسا وألمانيا لتحديد مناطق نفوذ الدولتين فى آسيا العثمانية خاصة فيما يتعلق بالسكك الحديدية . بالنسبة لفرنسا عقدت معها الدولة اتفاقية خاصة بالسكك الحديدية والموانئ البحرية أعطت بموجبها لفرنسا امتيازات :

(٦٢) أنيس ، حراز : المرجع السابق ص ٨٥-٨٧ .

لانشاء مرافىء طرابلس الشام رحيفا ويافا ، ولد سكة حديدية بين الرياض واللد ، ولد سكة حديدية تمتد من طرابلس الى يافا عن طريق بيروت — حيفا •

وأعطيت للفرنسيين امتيازات خاصة في تشغيل معظم هذه السكك بمديرين ومهندسين فرنسيين بحيث يكون لهم السيطرة عليها •

وهناك اتفاقية خاصة بالمؤسسات الفرنسية في آسيا العثمانية اعطت امتيازات واسعة للفرنسيين وفي نهايتها تعهد عثمانى بان « تعتبر الدولة أهالى تونس وفاس مثل أهالى الجزائر من تبعة فرنسا وان تعاملهم على هذا الأساس » •

وهذا يعنى أن الحكومة العثمانية قد اعترفت بحماية فرنسا على تونس وفاس •

وقد تضمنت هذه الاتفاقيات « اقتسام مناطق النفوذ » فى سوريا بين فرنسا وألمانيا بموافقة الدولة العثمانية •

ولكن روسيا لم تقدم للحكومة العثمانية ، خلال مفاوضات عامى (١٩١٣ — ١٩١٤) أى طلب يتصل بالوطن العربى •

وكانت بريطانيا قد صرحت غير مرة — على لسان وزير خارجيتها — بأنها تعترف بما لفرنسا من مركز ممتاز ومصالح خاصة فى سوريا وانها لا تطمح فى شىء فى سوريا •

وهذا يعنى أن القسمة المذكورة أصبحت متفقا عليها بين جميع الدول الأوروبية الكبرى وبموافقة الدولة العثمانية فأصبحت سوريا منطقة نفوذ فرنسية باستثناء حلب التى تركت لألمانيا (وعندما تقوم الحرب بين البلدين سيؤدى ذلك الى ضم حلب لمنطقة فرنسا) •

وكانت الدولة العثمانية تسعى من وراء ذلك الى عدة أمور أهمها :

- (أ) إلغاء الامتيازات الأجنبية •
 - (ب) زيادة الرسوم الجمركية •
 - (ج) الاستعاضة عن النظام الجمركى المقرر بتعريفة جمركية •
 - (د) احتكار صنع وبيع بعض المواد •
 - (هـ) إلغاء دوائر البريد الأجنبية •
 - (و) الحصول على بعض القروض لتسديد العجز فى الميزانية من ناحية وتحويل بعض المشاريع من ناحية أخرى •
- وقد وافق الاوروبيون على بعض هذه المطالب وأجلوا البعض الآخر مقابل ما حصلوا عليه من امتيازات (٦٣) •

وواضح أن المفاوضات التى جرت والاتفاقيات التى عقدت كانت قد وضعت « أسس اقتسام آسيا العثمانية » من الوجهتين :
« الاقتصادية والسياسية » ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية •
انها كانت تقسم الولايات والمتصرفيات العربية التى تمتد بين سواحل الشام وحدود ايران ، الى أربع مناطق نفوذ • خصصت ثلاثا منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا والرابعة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا •

وجاءت أحداث الحرب العالمية الأولى واتفاقيته فأقرت ما كان لبريطانيا وفرنسا ونسفت ما كان مقررا لألمانيا وقسمته بين بريطانيا وفرنسا •

ومن هنا يمكن القول أن أسس اقتسام البلاد العربية المذكورة

(٦٣) الحصرى : المرجع السابق ص ٢٠٤ •
عرض الحصرى فى كتابه المشار اليه لهذه الاتفاقيات بتفصيل ص ٢٠١-٢٢٣ •

كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية وتمت تحت علم الحكومة العثمانية نفسها (٦٤) •

وفى الثانى من أغسطس (آب) ١٩١٤ وهو اليوم التالى لنشوب الحرب دارت مفاوضات سرية بين ألمانيا وتركيا تمخضت عن عقد معاهدة دفاعية هجومية وكانت بمثابة اتفاق عسكرى يتضمن التزامات من جنب تركيا بالاشتراك فى أية حرب تخوضها روسيا اذ نصت المادة الثانية من الاتفاق على انه « اذا تدخلت روسيا وقامت باتخاذ خطوات عسكرية واضطرت ألمانيا الى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها عليها تحالفها مع النمسا فان تركيا ملزمة — فى هذه الحالة بالوفاء بالتزاماتها نحو ألمانيا » (٦٥) •

ولقد كان دخول تركيا الحرب الى جانب دول الوسط وضد دول الوفاق على جانب كبير من الأهمية لتأثيره على توازن القوى بين الفريقين المتحاربين •

فقد ترتب على دخولها الحرب ان صار على روسيا أن تحارب فى جبهة ثانية الى جانب ميدان الحرب ضد ألمانيا وبذلك يتحول جانب كبير من مجهود روسيا — وكذلك بريطانيا — من ميدان الحرب فى أوروبا • والى جانب ذلك فان تركيا بموقعها الاستراتيجى كان من شأن دخولها الحرب أن يؤثر على سلامة خطوط مواصلات بريطانيا ويفتح الطريق لامتداد النفوذ الالمانى الى ممتلكات بريطانيا الشرقية ولربما أثر على مستقبل الهند ذاتها (٦٦) •

(٦٤) نفس المرجع ص ٢٢٧ •

(65) Hurewitz, op. cit., vol II. pp. 1 — 2.

(66) Linczowski, George : The Middle East in World Affairs 2nd,ed (Cornell univ. Press 1957) pp. 38 — 39.

ومن أشد الأخطار التى كانت تهدد دول الوفاق من جانب تركيا اعلان الجهاد وكان من المؤكد أن تركيا ستلجأ الى سلاح الحرب الدينية بالعمل على اثارة العالم الاسلامى ضد دول الوفاق ، خاصة وان ملايين المسلمين كانوا تحت حكم كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وقد أكدت التقارير الأمريكية أن ملايين من رعايا الدولة المسلمين كانوا يرحبون بالحرب أملا فى القضاء على الخطر الروسى ويؤمنون فى هزيمة روسيا وبريطانيا بالاستعانة بألمانيا . وكانت ألمانيا ترى ان اعلان الحرب المقدسة سيحشد ضد الانجليز والروس المسلمين ويمكن أن يؤدى ذلك الى ارغام الدولتين على طلب الصلح (٦٧) .

ومن ثم فان دخول روسيا الحرب فى صف الوفاق كان مهما للمغايرة بالنسبة لبريطانيا وفرنسا .

وفى بداية الحرب ، شعرت الحكومة البريطانية بضرورة ابلاغ الروس عن موافقة لندن على حل مسألة الاستانة والمضايق وفق رغبات روسيا . وبعد استلام هذه المذكرة قدم « سازنوف » وزير خارجية روسيا رسالة فى ٤ مارس (آذار) ١٩١٥ الى السفيرين البريطانى والفرنسى فى بطرسبرج مقترحا عليها تزويده بموافقة خطية على أن تكون المضايق من حق روسيا وتقبل الحلفاء هذا الاقتراح فاعلن سفير فرنسا فى روسيا فى ٨ مارس (آذار) عن موافقة الحكومة الفرنسية على مطالبة بروسيا لقاء موافقة الأخيرة بالاعتراف بحق فرنسا فى سوريا ولبنان وكيلىكيا وكانت روسيا مستعدة للاخذ بهذه المساومة . ومع ذلك تحفظت حول « مطامع الأرمن فى كيلىكيا » كما أثارت قضية « الأماكن المقدسة » فى فاسطين أما البريطانيون فتصرفوا بحذر اذ طالبوا بأن يؤخذ بعين الاعتبار مسألة تأسيس دولة اسلامية مستقبلا وبأن تقرر حدودها فيما بعد .

(٦٧) محمود حسن منسى (الدكتور) : حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى ط ١ (دار الاتحاد العربى للطباعة - القاهرة ١٩٧٢) ص ٢٠١ .

وفى ١٠ أبريل (نيسان) ١٩١٥ وقعت اتفاقية بين روسيا وبريطانيا وفرنسا منحت المضائق بموجبها الى روسيا ونظر فى تأليف دولة اسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية أما قضية سوريا وفلسطين فبقيت معلقة حيث أجريت مفاوضات اضافية حولها بين انجلترا وفرنسا فى نهاية عام ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ . وبمناسبة هجوم الروس على القوقاز فى بداية ١٩١٦ ، أسرع فى انتهاء هذه المفاوضات . فوافقت بريطانيا على التنازل لفرنسا من الأراضى الواقعة غرب حلب - حماه - دمشق وأصر الفرنسيون على اعتبار هذه المنطقة كمستعبرة فرنسية مقبلة وشرقى سوريا كمنطقة نفوذ فرنسية .

وقبيل ذلك قدمت روسيا خطة جديدة لحل القضية العربية ، بعد أن كانت قد تأكدت من وجود نزاع بين جمال باشا والحكومة المركزية فى استانبول وتلخص هذه الخطة فى الآتى :

يطلب من جمال باشا أن يقطع علاقاته مع الباب العالي وأن يفتح الجبهة للحلفاء . واقتراح لقاء ذلك وضع جمال باشا على رأس سلطنة مستقلة مؤلفة من ست ولايات ذات حكم ذاتى (بضمنها أربعة ولايات عربية) وعلى هذا الأساس اقترح « سارنوف » اجراء مفاوضات سرية مع جمال باشا . الا أن دول الوفاق (فرنسا وبريطانيا بالذات) لم تكن مستعدة اطلاقا للموافقة على هذا المشروع الذى سيقدم البلاد العربية - محل اطماع الدولتين - لجمال باشا ولهذا أعلنت فرنسا انه لا يمكن تحقيق هذه الخطة الا فى حالة عدم تقديم المناطق التى خصصت لها الى جمال باشا . وقدمت بريطانيا نفس الشرط بخصوص العراق والجزيرة العربية . وترتب على ذلك فشل الخطة الروسية .

وفى مارس (آذار) ١٩١٦ قدم الى العاصمة الروسية المبعوثان الخاصان سايكس عن بريطانيا ، وبيكو عن فرنسا . وفى مجرى المفاوضات التى قاما بها ، وضعت الاتفاقية المعروفة بـ (سايكس -

بيكو) والتي تكونت كمذكرات متبادلة بين فرنسا وبروسيا (٩ مايو /
ايار ١٩١٦) وفرنسا وبريطانيا (١٥ مايو ١٩١٦) ولم يكن لروسيا
التي تبادلت المذكرات اللازمة مع بريطانيا في خريف ١٩١٦ اطماع في
البلاد العربية . ولكن لقاء انضمامها الى الاتفاقية وعدها حلفاؤها
بالولايات الارمنية في تركيا وشمال كردستان وأكدوا « حقها » في
القسطنطينية والمضايق وفي الدفاع عن مصالح الارثوذكس في فلسطين .
فظهرت على الخريطة الى جانب المناطق البريطانية الفرنسية « منطقة
صفراء » هي منطقة بحيرة « فان » تختص بها روسيا (٦٨) .

وهكذا فانه لكي تحصل روسيا على اطماعها في الأراضي التركية
الغير عربية ، سلمت بالمقابل لحلفائها (الفرنسيين والبريطانيين)
بأطماعهم في الوطن العربي . وشاركت في المفاوضات التي انتهت الى
اتفاقية سايكس بيكو المعروفة .

وعندما قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ تزايد اتجاه الحكومة
التركية نحو الجامعة الطورانية وزاد أمل الأتراك في تحقيق أحد
أهدافهم من الحرب وهو تحرير الجماعات التركية في روسيا وضمها
لتركيا ، وترتب على هذا تركيز الجهد التركي في الحرب في عالمها الرابع
على القوقاز مما أدى الى اهمال الميادين الأخرى للحرب بما فيها
الشرق العربي حيث كانت ألمانيا تريد وقف التقدم البريطاني ،
ولذلك غضبت القيادة الألمانية لأنها نظرت الى التحرك التركي في القوقاز
عام ١٩١٨ كما لو كان الأتراك قد تخلوا عن تحالفهم مع الألمان ليخوضوا
حربا تخدم مصالحهم وحدهم (٦٩) .

(٦٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٤٦٠-٤٦٢ وانظر النص في :

Hurewitz, op. cit., vol. II. pp. 18 — 22.

وانظر كذلك محمود صالح منسى : المرجع السابق ٣٢٥ وما بعدها .

(69) Linczowski op. cit., p. 55.

وفى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩١٧ نشرت الحكومة الروسية المعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية وبضمنها اتفاقية سايكس - بيكو . وقد اذيع النص الكامل للاتفاقية ضمن بقية الاتفاقيات السرية عندما نشرت هذا النص جريدتا ازفستيا وبرافدا فى ٢٣ نوفمبر (تشرين الثانى) عقب العثور عليها فى سجلات وزارة الخارجية الروسية . ونشرت بناء على تعليمات تروتسكى « قوميسير » الشئون الخارجية الروسية والذي أعلن فى حديث له أمام اللجنة المركزية للسوفييت فى بتروجراد « ان كل الاتفاقيات السرية قد صارت الآن تحت يدى ، وان بنود هذه الوثائق لاسوأ مما توقعنا ، وسوف نلقى بها فى سلة المهملات » (٧٠) .

وأعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا فى أعقاب ذلك بأن الاتفاقية تليق عن البلاشفة وكان هذا التصريح لتهدة العرب وهو تصريح خادع بطبيعة الحال .

كما كان رد فعل الشريف حسين على نشر الروس لهذه الاتفاقية مجرد طلب استفسار من الحكومة البريطانية عن الاتفاقية وسارعت لندن فردت عن طريق ونجت مندوبها فى مصر فى حزيران عام ١٩١٨ مؤكدة ان ما أذاعته موسكو لا يمثل اتفاقية مبرمة فعلا ولكنها محاضر لمحادثات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا فى بداية الحرب وقبل الثورة العربية بقصد تجنب اثاره الصعوبات بين الدول المتحالفة فى متابعة الحرب ضد تركيا وان نجاح الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب قد خلق ظروفًا مختلفة تماما (٧١) .

وقبل الشريف هذا التفسير البريطانى . وواضح انه استمرار لخداع العرب .

(٧٠) محمود صلاحي منسى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(71) Antenius, op. cit., p. 257.

وكان الرئيس ولسن قد صرح في الكونجرس بتاريخ ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ بأنه سيعمل على منح حق تقرير المصير لشعوب الامبراطورية العثمانية .

ومعروف مدى التأثير الذى أحدثه هذا التصريح فى الوطن العربى .• لكن العرب لم يحققوا شيئا من وراء وعود ولسن ووقعت العراق والشام تحت يد بريطانيا وفرنسا تحت اسم الانتداب كما هو معروف أيضا .

خاتمة

من العرض السابق يتضح أن روسيا القيصرية كانت فى مقدمة الدول التى دخلت فى صراع مع الامبراطورية العثمانية استمر منذ عهد بطرس الأول (١٦٨٢-١٧٢٥) حتى سقوط النظام القيصرى سنة ١٩١٧ .

وكانت مناطق هذا الصراع الأراضى الآسيوية من الامبراطورية العثمانية المجاورة لروسيا والقسطنطينية والمضايق والبلقان .

وكان التحرك الروسى ضد الدولة العثمانية يدفع الى تدخل بريطانيا يعقبه تحرك أوروبى — لوقف التدخل الروسى ولنع الروس من تحقيق جل أطماعهم فى ولايات الدولة حفاظا على المصالح الاستعمارية لهذه الدول الأوروبية وعلى التوازن الدولى من وجهة نظرهم . ولكن تحت ستار الحفاظ على سيادة وتمامية أراضى الدولة العثمانية .

ان حروب الروس ضد الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أضعفت تلك الدولة كثيرا خاصة حرب القرم ١٨٥٤ — ١٨٥٦ ، وحرب ١٨٧٧ — ١٨٧٨ . ولكنها أضعفت الاقتصاد الروسى والعسكرية الروسية أيضا وهو ما ظهر أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم من الثورة التى قامت بها عام ١٩٠٥ .

وأخطر ما أصاب العثمانيين من جراء هذه الحروب هو اخراجهم من البلقان تدريجيا والنشاط الروسى فى كل ما حدث فى البلقان من انتفاضات ضد العثمانيين كان واضحا على امتداد القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين وكان يأتى تارة تحت ستار مساعدة الثوار ثم تحت اسم الجامعة السلافية •

وقد أثر الصراع الروسى — العثمانى على الوطن العربى كثيرا فجل الوطن العربى كان ابان هذا الصراع تابعا للدولة العثمانية وعلى ولايات الدولة ان تشارك فى حروبها ضد الروس وضد ما يحركه الروس فى البلقان بالذات وعلى هذه الولايات أيضا أن تدفع حصصها فى تعويضات الحرب لروسيا المطلوبة من الدولة العثمانية •

وكلما تقلص سلطان الدولة على الولايات الأوروبية فى البلقان تعمل على تقوية سلطانها أكثر فى الولايات العربية •

اضافة الى ذلك امتد النشاط الروسى الى مناطق عربية بشكل مباشر بهد ف الضغط على الدولة العثمانية لتسلم بمطالب روسية فى ميادين غير عربية أو لتسلم بتفوق نفوذ روسيا فى الأراضى المقدسة فى فلسطين : مثال ذلك ما حدث عن مساندة روسيا لحركة على بك الكبير فى مصر وظاهر العمر فى فلسطين فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وان تراجعت عن هذه المساندة بعد التنازل لروسيا من جانب لعثمانيين فى مناطق أخرى غير عربية •

ورأينا كيف قامت روسيا بدور بارز فى افشال مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى : ففى بدء الأزمة التركية — المصرية فرضت روسيا نفسها على الباب العالى (معاهدة هنكار اسكلى) ووقف هذا النصر الدبلوماسى — لصالح روسيا عام ١٨٣٢ تقدم القوات المصرية على مشارف استانبول وجاء اسطول القيصر الروسى وجيشه اليها وتمتع

الروس بنفوذ متفوق فى العاصمة العثمانية وبحق اجتياز سفنهم الحربية للمضايق التركية لفترة •

وجر ذلك الى تشدد بريطانى قاد دولا أوروبية أخرى الى اتفاق ضد محمد على اودى بمشروعه •

ونتيجة لتخوف بريطانيا الدائم من ظهور روسيا بشكل قوى فى البحر المتوسط وفى الخليج العربى وما يترتب على ذلك من اخطار على الطرق التى توصلها الى الهند لم تتمكن روسيا القيصرية — والتى كانت جادة فى العمل للوصول الى هذه البحار — من اقامة علاقات اقتصادية واسعة مع البلاد العربية رغم انها كانت قد أقامت مثل هذه العلاقات فى القرن التاسع عشر خاصة مع مصر وسوريا وتوسعت فيها بعد افتتاح قناة السويس •

ففى عام ١٩٠١ فتحت شركة للملاحة والتجارة الروسية خطا ملاحيا منتظما بين « اوديسا » وموانئ الخليج العربى ولكن بريطانيا التى كان لها السيطرة فى الخليج فى ذلك الوقت قررت خنق المزاخمة الروسية فى التجارة وهى فى مهدها فأ سرعت وخففت شركات الملاحة البريطانية بعد وصول « كورنيلوف » أول سفينة لشركة الملاحة والتجارة الروسية الى البصرة عام ١٩٠١ — أجرة النقل البحرى من موانئ أوروبا بنسبة ٧٠٪ ومع ذلك استمرت التجارة الروسية — العربية تتطور ولكن ببطء (٧٢) •

وقد شاركت روسيا القيصرية دولا أوروبية أخرى قبيل الحرب العالمية الأولى وابانها من أجل تحقيق أطماعها فى الأراضى العثمانية •

(٧٢) بونداريفسكى : سياستان ازاء العالم العربى (دار التقدم — موسكو ١٩٧٥) ص ٢٠-٢١ •

فمن أجل تحقيق أحلامها فى (القسطنطينية) والمضائق شاركت
روسيا بريطانيا وفرنسا فى اتفاقية سايكس - بيكو - وان لم يكن
لها اطماع فى الوطن العربى - وكان ذلك آخر عمل ساهمت فيه روسيا
يمس الوطن العربى •

وتجدر الإشارة الى أن نعمة التخويف بالخطر الروسى على الخليج
العربى والهند قد ضربت عليها بريطانيا من القرن التاسع عشر فى وقت
كانت فيه السيطرة البريطانية على الخليج قائمة والاستعمار البريطانى
فى الهند راسخة اقدامه ولم يكن هنا أو هناك أى أثر لسيطرة روسية أو
احتلال روسى •

على أية حال فان خروج روسيا الى البحر المتوسط وظهورها فى
مياه الخليج العربى جعل اتصالها بالوطن العربى ميسرا وخدم مصالحها
وأخرجها من عزلتها • وبدأت قنصلها تنتشر فى المدن الهامة فى العراق
والشام ومصر • وفى القرن التاسع عشر كتب بعضهم عن أقطار عربية
فكتب القنصل الروسى بازيلى (استمر قنصلا لروسيا فى بيروت طوال
١٥ عاما اعتبارا من ١٨٣٩) كتابا عن « سوريا وفلسطين تحت الحكم
التركى تاريخيا وسياسيا » وكتب أداموف أول قنصل روسى فى البصرة
كتابا باسم « العراق العربى » وكتب غيرهم فى القرن التاسع عشر
ومطلع القرن العشرين عن الحضارة العربية وتأريخ العرب من العلماء
الروس المشهورين من أمثال « فرين وبولديريف وسانيليف وجريجوريف
وسنيكوفسكى ودورن وروزين وميدنيكوف وبارتولد وكريمسكى
وكراتشكوفسكى » وتعاون معهم بعض السوريين المصريين مثل الأديب
المصرى الشيخ طنطاى الذى قام بتدريس اللغة العربية منذ عام ١٨٤٠

فى القسم الخاص باللغات الشرطية فى وزارة الخارجية الروسية.
وأصبح اعتباراً من عام ١٨٤٧ استاذ اللغة العربية فى جامعة
بطرسبرج (٧٣) .

وهذا يعنى أن هناك علاقات قامت بين روسيا القيصرية والبلاد
العربية فى العهد القيصرى وان كانت هذه العلاقات لم تتخط العلاقات
القنصلية .

(٧٣) بوتداريفسكى : المرجع السابق ص ٢٦٤-٢٦٥ .

||(*) فيما يخص مصر والتمثيل القنصلى بينها وبين روسيا ، انظر
التفصيلات فى فؤاد المرسى : العلاقات المصرية - السوفيتية ١٩٤٣-١٩٥٦
(دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٧٦) ص ٢٠-٢١ .

